القسم الثاني
الحروب الصليبية

obeikandl.com

obeikandl.com

تمهيـــــــد :-

لم تجد اللغة العربية[1] في العصور الوسطى مصطلحًا يعبّر عن مفهوم "الحروب الصليبية"؛ ومن ثم فقد أطلق العرب على الصليبيين الذين قدموا إلى الشرق اسم "الفرنج" نسبة إلى أصلهم (وهو ما يعني الفرنسيين لأن القسم الأكبر من المساهمين في الحملة الصليبية الأولى هم من أصل فرنسي)، وأطلقوا اسم "بلاد الفرنج" على الإمارات الصليبية التي تأسست في الشرق الإسلامي، بما في ذلك مملكة بيت المقدس . وأما أن تعني "الحروب الصليبية" أمرًا مغايرًا، أي القتال من أجل نشر دين المقاتلين كما هو الحال بالنسبة لمفهوم الجهاد في الإسلام، فهو أمر لم يتصوره المسلمون. ذلك أن الحملة الصليبية الأولى بدت لهم وكأنها حملة من الحملات العسكرية التي كانت تقوم بها الإمبراطورية البيزنطية بين الحين والآخر . وأكبر دليل على ذلك اتصال الوزير الأفضل الفاطمي بالقادة الصليبيين أثناء حصارهم لمدينة أنطاكية بغرض اقتسام المنطقة شريطة عدم دخولهم مدينة القدس . فرفُض العرض.

ومن المعروف أن الحروب الصليبية بمعناها الوسع كانت قد بدأت فعلاً قبل أن يتم الإعلان عنها في مؤتمر كليرمونت بشكل رسمي في اليوم السابع والعشرين من الشهر الحادي عشر من عام (١٠٩٥)؛ فمنذ

---

[1] هانس ماير، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة وتعليق د. عماد الدين غانم، المعهد العالمي للعلوم الاجتماعية التطبيقية، منشورات مجمع الفاتح للمنشورات ١٩٩٠، ص ٨٤.

توسع العرب المسلمون في حوض البحر المتوسط والحروب لم تنقطع بينهم وبين النصارى سواء في الشرق أو في الغرب. وقد اتخذت تلك الحروب صبغة دينية في كثير من أدوارها، واشتهر من ميادينها جنوب إيطاليا، وجزيرة صقلية، وإسبانيا.

البابا أوربان الثاني (١٢ مارس ١٠٨٨ – ٢٩ يوليو ١٠٩٩):

جاء اعتلاء أوربان الثاني الكرسي البابوي خلال السنوات الأخيرة من القرن الحادي عشر؛ وهي فترة تميّزت بوقوع تغيرات تاريخية جذرية ومهمة في عالم العصور الوسطى، كما كانت مليئة بالأزمات السياسية المتبثقة من علاقة الكنيسة بالسلطات العلمانية، وعديد الإصلاحات في المؤسسة الكنيسة. لذلك يُعد أوربان الثاني من الباباوات الذين تركوا بصمات واضحة علي التاريخ الأوربي بشكل عام، وعلي تاريخ أوربا الوسيط بشكل خاص؛ فبالإضافة إلي قراراته ومراسيمه القانونية التي تضمنها دستور الكنيسة، فإنه أكدّ الموقع القيادي للبابوية في العالم النصراني بإعلانه الحروب الصليبية، التي عملت بشكل كبير علي توطيد مكانة البابوية والرفع من هيبتها وزيادة تأثيرها في مختلف الأقطار الأوربية.

ولد أوربان حوالي سنة (١٠٣٥) لأبوين من أصل أرستقراطي نبيل في مدينة لاجيرىLagery في منطقة شامبين(*)Champagne بفرنسا، وكان اسمه الأصلي آودو Odo. وبعد أنت تلقى تعليمه في كل من

(*) رئيس الشماسين موظف معمّد يعيّن بواسطة الأسقف bishop لكي يقوم بمساعدته في الأعمال الإدارية؛ وقد تمتع هذا المكتب بنفوذ كبير خلال العصور الوسطى.

سواسون وريمز Reims أصبح رئيس الشماسين Archdeacon في أبرشية ريمز، واستمر في هذا المنصب من حوالي (١٠٥٥ حتى ١٠٦٧)، ثم في الفترة الواقعة بين عامي (١٠٧٠ حتى ١٠٧٤) أصبح رئيساً لدير كلوني[1] Cluny، الذي يُعد أهم مركز لحركة الإصلاح الديرية (الرهبانية) Monasticism في أوروبا خلال القرن الحادي عشر. وفي أثناء وجوده في ريمز وكلوني اكتسب أودو خبرة في مجال الإدارة والسياسية الكنيسة، وصار على اتصال بفرقتين من الفرق الإصلاحية المهمة في ذلك الوقت: الأولى عبارة عن مجموعة من رجال الدين المتحمسين الذين وهبوا أنفسهم لخدمة الكنيسة ويعيشون حياة تتميز بالانضباط الشديد والقسوة، وأما الفريق الآخر فهم الرهبان الكلونيون. وعندما كان في زيارة لمدينة روما سنة (١٠٧٩)، قام البابا غريغوري السابع بترسيمه كاردينالاً وعيّنه أسقفاً لمدينة أوستيا Ostia الميناء البحري لروما. وفي أثناء صراع غريغوري السابع مع الإمبراطور الألماني هنري الرابع ظل أودو على ولائه للبابوية الشرعية، واستمر في خدمتها في عهد خليفته يكتور الثالث الذي مات في سبتمبر من سنة (١٠٨٧). وفي ١٢ مارس سنة (١٠٨٨) تم انتخابه بابا تحت اسم أوربان الثاني.

وبما أنه يُعد من البابوات الإصلاحيين، فقد وجد أوربان الثاني بعد انتخابه بابا الدعم والتشجيع اللازمين لسياسته الإصلاحية من عدد من الجهات المختلفة مثل: طبقة النبلاء الذين كان على علم بطريقة تفكيرهم ومصالحهم واهتماماتهم، ومن الفرق الدينية الأخرى والرهبان

---

[1] تأسس هذا الدير في عام (٩١٠) في مقاطعة برغنديا بجنوب فرنسا.

الذين صار حاميهم ومشرِّعهم، وكذلك من الأساقفة الذين أخذ دعمهم له يتزايد مع مرور الزمن.

وعندما اعتلى أوربان الثاني الكرسي البابوي كان الصراع ما يزال على أشده بين البابوية والإمبراطور الألماني هنري الرابع بسبب مسألة التقليد(*) العلماني، ومع ذلك فقد تمكن بدهائه وحنكته السياسية من أن يسيِّس القضيَّة ويجعل الأطراف المعنية تقبل بالحوار بدلاً من الاستمرار في المواجهة والصدام حتى يتفرغ هو لمواصلة تنفيذ مشاريعه الإصلاحية .

وعلى الرغم من الخلاف الذي نشب بينه وبين فيليب الأول ملك فرنسا بسبب زواجه المخزي، فإن فرنسا صارت مع وجود هذا البابا – الفرنسي الأصل – أهم داعم للبابوية ومشاريعها خلال العصور الوسطى. كذلك تحصل أوربان على دعم كبير من جنوب أوروبا وعلى وجه الخصوص من حلفائه المخلصين النورمنديين في جنوب إيطاليا وصقلية .أما في إسبانيا فقد دعم أوربان الثاني بقوة وشجع على المشاركة في الحرب الصليبية التي كانت تُشن هناك ضد المسلمين تحت ستار حرب الاسترداد. وفي الوقت نفسه استمر في القيام " بإصلاحاته وتنظيماته الكنسية". وهكذا صار الملوك والأمراء في كل من جنوب إيطاليا وفرنسا وإسبانيا أتباعاً للكرسي البابوي وعقدوا مع البابا المعاهدات والاتفاقات على النمط الإقطاعي؛ وقد سعى الحكام العلمانيون من وراء

(*) التقليد العلماني: تدخل السلطات الزمنية (العلمانية) الحاكمة في تعيين رجال الدين، والقيام بتقليدهم بشارات السلطة؛ وهي عبارة عن خاتم وصولجان ترمزان إلى السلطة الدينية.

ذلك إلى تأمين استقلالهم من السادة الأكثر منهم قوة، في حين استغل البابا ذلك في تنفيذ "برامجه الاصلاحية في تلك المناطق".

لقد عمل البابا غريغوري السابع من قبله اعتناق فكرة تسليح أوروبا وتعبئتها ضد آسيا الصغرى (السلاجقة المسلمين)، ذلك أنه تم تجنيد أعداد كبيرة من المتطوعين للحرب تحت راية القديس بطرس، وأن الذي خلفه كان على استعداد لقيادتهم بنفسه ضد الكفرة غير الأتقياء من شيعة (محمد). ولكن مجد هذه المغامرة المقدسة كان من نصيب أوربان الثاني (١٠٨٨ – ١٠٩٩) الأكثر أتباعه إخلاصاً، والذي أخذ على عاتقه مهمة الاستيلاء على الشرق.

لقد كان النصارى سواء في الغرب أو في الشرق في عصر الحروب الصليبية، على قناعة تامة بأن عملهم كان قانونياً وجدير القيام به مستندين في ذلك على الاساءة الدائمة لنصوص الكتاب المقدس، وعلى اصرارهم على حقهم في الدفاع الطبيعي المنق من الدين، وعلى ملكيتهم الخاصة للأرض المقدسة، وعلى قلة ورع أعدائهم الوثنيين و"المحمديين".[1]

the impiety of their Pagan and Mohammedan Foes.

فالحق في دفاع عادل ربما يتضمن الجمع بين الجانب المادي والجانب الروحي بشكل تام؛ ذلك أنه يعتمد على وجود خطر. وأن

---

[1] الوثنيون، أي غير المسلمين. وأما "المحمديون" فيعني چيبون بهم المسلمون. وهو أمر مقصود يرمي من ورائه بأن الدين الإسلامي هو من صُنع محمد (ﷺ) وليس ديناً مُنزل من الله وأن محمداً مجرد نبياً ورسولاً. وهو بذلك ينتمي إلى مدرسة المتعصبين للنصرانية والحاقدين على الإسلام ونبيّه.

ذلك الخطر يجب تقديره وفقاً لاعتبار شائي يرتكز على مدى خبث ومكر أعدائك ومدى قوتهم. وثمة عقيدة ضارة ومؤدية منسوبة "للمحمديين"، وهي واجب استئصال كل الديانات الأخرى بحد السيف. the duty of extirpating all other religions by the sword.

ولكن هذه التهمة المبنيّة على الجهل والتعصب يدحضها القرآن، وتاريخ الفاتحين المسلمين، وتسامحهم الشعبي والقانوني تجاه النصارى وممارسة عبادتهم ولكنها لا نستطيع في الوقت نفسه إنكار أن الكنائس الشرقية تعرضت إلى كثير من المعاناة تحت عبوديتهم الحديدية under their iron yoke ؛ وأنهم سواء في حالة السلم أو الحرب كانوا دائماً يؤكدون على المطلب المقدس وغير القابل للإلغاء وتأسيس إمبراطورية عالمية؛ وأنه وفقاً لعقيدتهم الأصلية، فإن الأمم غير المؤمنة مهددة بصفة مستمرة بفقدان حريتها الدينية، ومن ثم فإن جيوش الأتراك السلاجقة المنتصرة في القرن الحادي عشر مثّلت تخوف حقيقي وعاجل لتلك الخسارات.

لقد كانت الحركة التي تسبب في أحداثها مؤتمر كليرمونت، والتي شكلت نفسها في حملة صليبية في العام التالي، هي من العمل الشخصي لأوربان الثاني؛ ولكي يضع اوربان المشروع موضع التنفيذ، وجد ظروفاً مواتية في الحياة خلال النصف الثاني من القرن الحادي عشر، ليس من وجهة النظر الدينية وحسب، بل في الجوانب السياسية والاقتصادية أيضاً.

واصل البابا أوربان الثاني رحلته الدينية - بعد انتهاء أعمال

مؤتمر بياتشنزا – الذي يبدو أنه طاف فيها معظم الغرب الأوربي وخاصة مدن جنوب فرنسا - فيما بين شهري أبريل ونومبر. ويُفهم من ذلك أن فكرة إعلان الحروب الصليبية لم تكن وليدة مؤتمر كليرمونت، وإنما نضجت واختمرت في ذهن أوربان أثناء جولته التي قضاها في التنقل بين مدن الجنوب الفرنسي. وما يؤكد ذلك أن أوربان كان قد تحدث مع ادهيمار Adhemar أسقف مدينة لوپوي Le Puy عن مشروع صليبي يستطيع عن طريقه مساعدة البيزنطيين في مواجهة الضغوطات السلجوقية ويحقق من خلاله ما تصبو إليه البابوية من أهداف. وتشير المصادر إلى أن أوربان فاتح أيضاً ريموند الجيلي أو الصنجيلي Remond of Saint – Gills في أمر مشروعه الصليبي؛ إذ يُعد ريموند أمير تولوز هذا من أبرز القادة النصارى الذين شاركوا مشاركة فاعلة في الحرب التي شنتها الدويلات النصرانية في إسبانيا ضد الوجود العربي الإسلامي؛ ففي سنة (١٠٨٧) كان ريموند واحداً من قادة التحالف الذي تشكل لمقاومة المرابطين في إسبانيا، وشارك بفعاليةً في الحملات التي قامت في السنوات التالية بتشجيع من أوربان الثاني نفسه.

وهكذا، يبدو واضحًا أن سياسية أوربان الثاني لا تنحصر فقط في القيام بعمل مشترك ضد الإسلام والمسلمين، أو استخدام الرجال الذين لهم باع طويل في الحريضد المسلمين و اكتسبوا الخبرة اللازمة في الغرب لتنفيذ مشروعه الصليبي في الشرق. وهنا لابد أن يتساءل المرء حول ما إذا كانت سياسة أوربان في حوض البحر المتوسط - إسبانيا

وجنوب إيطاليا وصقلية - لا تقدم تفسيراً لما يدور في ذهنه حول هدف الحروب الصليبية الحقيقي ألا وهو: إنشاء قاعدة نفوذ في المشرق العربي لحساب الكنيسة الغربية. ويؤكد هذا التوجّه المؤرخ كلود كاهن Claude Cahen بقوله: "... وفي الواقع أراد أوربان الثاني نجدة بيزنطة من دون تحفظ، ولكن ذلك لم يمنعه من تدبير برنامجه الخاص، وهو ما يمكننا أن نستخلصه من الأحداث المتعلقة بهذا الأمر طالما أننا لا نملك أي نص مكتوب؛ لأنه من الصعب الاعتقاد أن أوربان لم يتوقع أو لم يبحث مسألة إنشاء دولة "لاتينية" في سوريا وفلسطين بحيث تصبح قاعدة للنفوذ الغربي في الشرق".

مؤتمر كليرمونت نومبر (١٠٩٥):-

حقق أوربان أكثر نجاحاته في الفترة الواقعة بين سنتي (١٠٩٥) و (١٠٩٩)؛ حيث قام خلالها بعقد سلسلة من المؤتمرات الدينية التي كان الهدف منها تمرير إصلاحاته وتشريعاته الكنسية ومعالجة المسائل الدينية والمشاكل العالقة بين الكنيستين الشرقية والغربية. ويُعد مؤتمر كليرمونت Clermont أهم وأخطر تلك المؤتمرات.

وكان أوربان قد وجّه في(١٠٩٥/٠٨/١٥)- عندما كان في زيارة أدهيمار- الدعوة لرجال الدين لحضور مؤتمر يُعقد في كليرمونت في الثامن عشر من نوفمبر من السنة نفسها. وانعقد المؤتمر في الموعد المحدد، وحضره عدد كبير من رجال الدين - أغلبهم من فرنسا - بالإضافة إلى جمع غفير من الناس الذين تجمعوا في ساحة غير بعيدة من الكنيسة. وعالج المؤتمر في الفترة من (١٨ حتى ٢٦) نومبر عديد القضايا

الدينية الداخلية؛ وفي اليوم السابع والعشرين خرج أوربان الثاني إلى الجموع الغفيرة التي احتشدت خارج الكنيسة وأعلن عن قيام الحروب الصليبية في خطاب[1] ألهب به حماسهم وسحر به عقولهم وشحذ به عزائمهم إلى الحد الذي جعل صيحاتهم تتعالى "هذه هي مشيئة الرب God wills it".

خطاب نظر إليه كثير من مؤرخي الغرب على أنه الباعث الرئيس الذي انطلقت منه الحركة الصليبية في شكل حملات عسكرية من الغرب المسيحي قاصدة الشرق العربي تنوعت دوافع المشتركين فيها ومقاصدهم، نظراً لما تناوله أوربان فيه من مسائل والأسلوب الذي استخدمه في طرح تلك المسائل. وفيما يلي ترجمة أهم النقاط التي وردت في ذلك الخطاب:

١- أن يلتزم الجميع بتطبيق "سلام الله" و "هدنة الله" ومراعاة ما جاء فيها، في إقامة العدالة، ومنع الحروب الداخلية، وقطع الطرق واحترام حقوق الكنيسة والحفاظ عليها. وتوعّد المخالفين بالحرمان من جماعة المؤمنين.

٢- تضخيم الأنباء المغرضة وتهويلها - بشكل لم يسبق له مثيل - والتي تدعّي أن النصرانية في الشرق تتعرض للخطر، وأن النصارى يعانون من سوء المعاملة من جراء قيام السلاجقة والعرب بمهاجمتهم، واحتلال أراضي الإمبراطورية البيزنطية، وقيامهم بتدمير الكنائس، وقتل وأسر كثير منهم؛ لذلك من الضروري مساعدتهم ضد هذا العدو

---

[1] أنظر ترجمة الخطاب الكاملة في الملحق رقم (١).

وإنزال العقاب به على ما ارتكبه من جرائـــــم في حـــــق إخوانـــهم نصارى الشرق.

٣- نشر هذه الأنباء وإذاعتها في كل مكان، وإقناع الناس بمختلف طبقاتهم أن يهبّوا فوراً لنصرة إخوانهم في الشرق" ويقضوا على ذلك الجنس الخسيسand to destroy that vile race..." ويطردوهم من أراضيهم.

٤- التأكيد على محو الذنوب ونيل المغفرة لكل من يموت حتى بنيّة قتال أولئك "الوثنيين pagans"، وأنه هو شخصياً كفيل بذلك.

٥- الانتقاص من المسلمين والتشهير بدينهم ووصفهم "بعبدة الشياطين، وأنهم سلالة دنيئة وحقيرة despised and base race....".

٦- إيقاف الحروب الخاصة وتوجيه ضراوة القائمين عليها والمشاركين فيها نحو قتال من وصفهم "بالكفار Infidels". وأنه حان الوقت لأن يتحـوّل اللصـوص إلى فرسـان ويجمعـوا قـواهم ويقـاتلوا "البرابـرة Barbarians"، كما حان الوقت أيضاً لكي يقوم أولئك المرتزقة الذين يقاتلون مقابل حفنة من الدنانير، باستبدال ذلك والحصول على الجائزة الكبرى "الخلود eternity".

٨- حث المشاركين للبدء من دون تأخير - في تأجير أراضيهم، وجمع المال الضروري لرحلة السعادة والأمل - كما وصفها - ؛ إذ عليهم أن يشدّوا الرحال حالما يأتي فصل الربيع والرب دليلهم ومرشدهم.

الحملة الصليبية الأولى

ارتبطت الدعوة للحروب الصليبية باسم داعيتين هما : البابا أوربان الثاني على المستوى الرسمي، وبطرس الشهير بالناسك على المستوى الشعبي؛ وكلاهما كان فرنسي الأصل.

إن ما جاء في خطاب أوربان الثاني الذي ألقاه في كليرمونت صار زاداً للمبشرين الجائلين الذين كان أشهرهم بطرس الناسك الذي أخذ يتنقل في أرجاء فرنسا، ثم سار على امتداد نهر الراين، واستطاع بما اشتهر به من فصاحة وقدرة على الإقناع أن يجتذب إليه ألوف الفقراء والمعوزين.

أ- المسيرات الشعبية:-

وفي أبريل سنة (١٠٩٦) - قبل حوالي أربعة أشهر من الموعد الذي حدده أوربان لتحرك الجيوش الصليبية الرسمية - تم حشد خمسة جيوش من الدهماء لم يصل إلى القسطنطينية منها سوى جيشا بطرس الناسك ووالتر المفلس، وأما الجيوش الأخرى فقد تم تدميرها والقضاء عليها بواسطة السلطات المجرية في يونيو (١٠٩٦) بسبب ما ارتكبته من جرائم في حق السكان المحليين الذين هم من النصارى. ومن الدلائل الواضحة على استغلال الدين في إحراز مكاسب دنيوية ما قام به قادة تلك الجيوش الشعبية أمثال إميخ Emich أو إميكو Emico، وفولكمار ووليم النجار الذين جمعت بينهم اللصوصية وقطع الطرق كعامل مشترك؛ إذ صب هؤلاء جام غضبهم على من كانوا يمتلكون

الثروة والمال آنذاك في جهات الراين الألمانية والفرنسية ويصفونهم بأعداء الله، وهم اليهود، حيث أجروا فيهم مذابح مروعة في عدد من المدن الألمانية والفرنسية، وتعرض كثير منهم للنهب والسلب والتشريد. ولكن في الوقت نفسه قام كثير من اليهود بدفع التبرعات والأموال لبطرس الناسك اتقاءً لشر أتباعه وأسهموا في تمويل حملته.

على أن جيشين من هذه الجيوش الخمسة، الأول بقيادة وولتر المفلس والثاني بقيادة بطرس الناسك وصلا القسطنطينية في أواخر يوليو (١٠٩٦)، بعد أن صادفا في طريقهما مصاعب جمّة عند اجتياز الأراضي البلغارية ودخولهم الأراضي البيزنطية. وتجدر الملاحظة إلى أن هذه الجيوش ضمت في صفوفها كثير من المتشردين والمتسولين وطريدي القانون.

وفي اليوم السادس من أغسطس عبر الجيشان البسفور إلى آسيا الصغرى حيث لقيا مصيرها المحتوم، وهلكا على يد السلاجقة. وأما بطرس الناسك فرجع إلى القسطنطينية حيث مكث ينتظر قدوم حملة الأمراء. وبذلك جاءت تلك المسيرات الشعبية إلى نهايتها.

وتمثل الحملة الصليبية أول هجوم منظم يقوم به العالم النصراني ضد من يصفونهم "بالكفرة" من المسلمين وغيرهم، وأن هذا الهجوم لم يكن مقتصراً على وسط أوروبا، وإيطاليا، والدولة البيزنطية. ذلك أنه بدأ في الركن الجنوبي الغربي من أوروبا في إسبانيا، وانتهى في السهوب الروسية التي لا حدود لها.

وأما فيما يتعلق بإسبانيا فقد قام البابا أوربان الثاني في رسالته بتاريخ (١٠٨٩) بتفويض كلا من الكونتات الإسبان، ورجال الدين وآخرين من النبلاء والرجال الأقوياء المتفذين وحثهم على البقاء في أراضيهم وأماكنهم وعدم مغادرتها إلى مدينة القدس، وأن يُرهقوا أنفسهم في إعادة بناء كنائس النصارى التي دمرها المسلمون[1]. وقد شكل هذا الجناح الأيمن للحركة الصليبية ضد "الكفرة."

وأما في الشمال الشرقي، فقد كانت روسيا تدافع عن نفسها في نوعٍ من اليأس ضد جموع البرابرة من البولوتزي Polovtz المعروفين باسم قبائل (الكومان Cumans)، الذين ظهروا في السهول الجنوبية حوالى منتصف القرن الحادي عشر، وخربوا البلاد، ودمروا التجارة عن طريق استيلائهم على الطرق المؤدية إلى الشرق والجنوب من روسيا. وفي هذا الشأن كتب المؤرخ الروسي كلوتشڤسكي Kluchevsky يقول "إن هذا الصراع بين الروس وبين قبائل الكومان – صراع دام لما يقرب من قرنين – لم يكن ليمر من دون أن يحتل مكانه في التاريخ الأوروبي بصفة عامة؛ لأنه وبينما كان الغرب منهمكاً في حرب صليبية ضد قوات آسيا والشرق (قوات السلاجقة)، وفي الوقت نفسه كانت حركة مماثلة مستمرة في شبه الجزيرة الإيبيرية ضد المورز The Moors (المسلمين)، فإن روسيا كانت تقوم بالدفاع عن الجناح الشمالي لأوروبا. وقد كلفتها هذه الخدمة التاريخية غالياً، لأنها لم تؤد

---

[1]Bulla Urbani II, July 1, 1089, Romae, in J.D, Mansi, Sacroum Conciliorum nove et amplissima collection, XX, 701.=

إلى طردها من مستعمراتها القديمة على نهر الدنيبر Dnieper وحسب، ولكنها كانت السبب في تغيير اتجاه نمط حياتها بالكامل."[1] وبهذه الطريقة تكون روسيا قد شاركت في الحركة الصليبية الأوروبية الغربية العامة؛ ذلك أنها في الوقت الذي تكون قد دافعت فيه عن نفسها، فإنها كانت تدافع عن أوروبا ضد البرابرة الكفرة. وإذا ما فكر الروس في حمل الصليب – يقول المؤرخ ليب Leib – كان عليهم أن يدركوا أن واجبهم الأول هو خدمة النصرانية وذلك بدفاعهم عن أراضيهم، بالكيفية نفسها التي أقرّها البابا أوربان الثاني للإسبان[2].

وقد اشتركت الممالك الإسكندينافية في الحملة الصليبية الأولى أيضاً، ولكن عن طريق الانضمام للجيش الرئيس في مجموعات صغيرة. إلا أن أحد النبلاء الدنمركيين قام في عام (١٠٩٧) بقيادة جماعة من العناصر الصليبية إلى فلسطين. وأما في الشمال فلم يُسمع عن أي تعصب ديني كبير، وبقدر ما هو معلوم، فإن أغلب الصليبيين الإسكندينافية – أي القادمين من الدول الإسكندينافية – [3] كانوا مدفوعين بحب

=وعلى الرغم من تعصب أوربان الثاني ودعمه اللا محدود للحرب الصليبية ضد المسلمين في إسبانيا إلا أن ثمة من يشكك في أصالة هذا المرسوم من دون إبداء أسباب مقنعة، ربما لتجميل صورة أوربان.

(1) V.O.Kluchevky, A History of Russia, Trans. C.J. Hogarth, I, 192; (2nd ed. In Russian, 1906), I, 344-5. Vasiliev, P.400

(2) Leib, Rom, Kiev, et Byzance, ala fim du xisiecle, (Paris, 1924).

(٣) السويد، والنرويج، والدنمارك.

الحرب والمغامرة وإمكانية الكسب المادي و الحصول على الشهرة أكثر منه بالحماس الديني[4].

وفي مارس من عام (١٠٩٥) دعا البابا أوربان الثاني إلى انعقاد مؤتمر في مدينة بياتشنزا Piacenza الإيطالية لمناقشة بعض القضايا المتعلقة بأوروبا. واستغل الإمبراطور أليكسيوس كومنين انعقاد هذا المؤتمر وأرسل بوفد آذن له أوربان بالحضور وعرض قضيته المتعلقة بالمساعدة. وتُجمع المصادر على أن طلب أليكسيوس كان الغرض منه حصوله على فرق أجيرة من المرتزقة وليس على جيوش منظمة تهدف إلى احتلال فلسطين وإقامة مملكة صليبية فيها. ومع ذلك فإن الأسلوب الذي اتبعه يبدو غريباً إلى حدٍ كبير على أن السبب الذي دفع أليكسيوس إلى مناشدة مؤتمر بياتشنزا المساعدة يرجع إلى أن الأتراك السلاجقة صاروا يشكلون خطراً كبيراً خلال السنوات الثلاثة الأخيرة جراء تقدمهم بنجاح في آسيا الصغرى؛ أضف إلى ذلك، قيام قليج Qilij أرسلان بتأسيس سلطنة على حدود الإمبراطورية الجنوبية في حوالي سنة (١٠٩٥)عُرفت باسم سلطنة الروم متخذاً من مدينة نيقيا Nicaea عاصمة له. على كل حال، فقد حظي طلبه بتأييد الحاضرين ودعمهم. ولكن لسوء الحظ – يقول أحد المؤرخين – أن المعلومات حول هذه الفترة شحيحة جداً، "ذلك أن العلاقات بين الشرق والغرب في الفترة الواقعة بين

---

[4]Gjerst, Norwegian People, I, 313-14.see P.E.Riant, Expèditions et Pèlerinages des Scandiaves en Terre Sainte, 127-71. Vasiliev. P.401.

انعقاد مؤتمر بياتشنزا وحتى وصول الصليبين إلى القسطنطينية يكتنفها كثير من الغموض الباعث عن التشويق"[1].

ب- حملة الأمراء :

بدأت في صيف (١٠٩٦) تتشكل في أوروبا الغربية ما عُرف باسم الحملة الصليبية الأولى أو حملة الأمراء نظراً لما تضمنته في تشكيلتها من أمراء وكونتات، وأدواق. وسُميت بهذا الاسم لأنه لم يشارك فيها أي عاهل أوروبي؛ فهنري الرابع ملك ألمانيا كان متمشكلاً مع البابوية في قضية التقليد العلماني، وأما فيليب الأول ملك فرنسا فكان تحت طائلة الحرم الكنسي بسبب طلاقه لزوجته الشرعية وزواجه من أخرى بينما كان وليم الثاني روفوس ملك إنجلترا في صراع مع أتباعه ومع الكنيسة وكان عرشه غير مستقر.

ومن قيادات الجيوش الصليبية :

١- غودفري أو بويون Godfrey of Bouillon دوق اللورين السفلى وعلى الرغم من أنه وُصف بالشجاعة والتدّين والمقدرة العسكرية، فإنه كان يرغب من خلال مشاركته في هذه الحملة في تعويض ما تعرض له من خسائر في ممتلكاته الأوروبية. واشترك شقيقاه معه في هذه الحملة. وكان أحدهم يدعى بُلدوين Baldwin (أو بولدوين)، وهو أول من أسس إمارة صليبية في الشرق - إمارة الرها - وصار ملكاً لمملكة

---

[1] F.Duncalf, "The Pope's Plan for The First Crusade," Crusades and Other Essasys, (New York,1928), 48-49, Vasiliev, 402.

القدس فيما بعد.

٢- روبرت دوق نورمندي Robert, the duke of Normandy، ابن وليم الفاتح، وشقيق ملك إنجلترا وليم الثاني، اشترك في الحملة ليس من دوافع دينية ولا من بواعث الشهامة والفروسية، ولكن لأنه كان ساخطاً وغير راضٍ على ما لديه من سلطة محدودة في دوقيته التي رهنها لأخيه مقابل مبلغ من المال.

٣- هيو كونت يرمندوا Hugh, count of Vermandois شقيق ملك فرنسا ومن القادة الطموحين كان هدفه المجد والشهرة والحصول على ممتلكات جديدة.

ويقف على رأس هذه الجيوش الثلاث :

هيو كونت فيرمندوا على رأس الجيش القادم من وسط فرنسا، بينما قاد كل من روبرت النورمندي وروبرت من فلاندرز الجيشان القادمان من شمال فرنسا- وأما الجيش القادم من جنوب فرنسا فكان بقيادة ريموند حاكم مدينة طولوز Raymond, count of Toulouse، وهو محارب أشتهر بمشاركته في قتال العرب في إسبانيا، ويقال أنه كان قائداً موهوباً ورجلاً متديناً. وأخيراً، بوهيموند من تارنتوم Bohemond of Tarentum، ابن روبرت جيسكارد Guiscard- يرافقه ابن أخيه تانكريد Tancred، الذي قاد الجيش النورمندي القادم من جنوب إيطاليا، وليس لديه أي اهتمامات دينية، ويُعد من ألدّ خصوم الدولة البيزنطية ويتوق إلى تصفية الحسابات معها. وتُجمع المصادر على أن اشتراكه في الحرب الصليبية جاء مدفوعاً

برغبته في تحقيق أهداف مادية سياسية صرفة يأتي على رأسها تأسيس إمارة في الشرق العربي، وتشير بعض المصادر إلى أنطاكية. ويُعد جيشه الأفضل استعداداً بين الجيوش الصليبية بسبب الحروب التي خاضها ضد العرب المسلمين في جزيرة صقلية وضد البيزنطيين في جنوب إيطاليا. ومن ثم نرى أن لكلٍ من الجيوش الصليبية أهدافه الخاصة؛ لأنه لم يكن لها قيادة موّحدة ولا خطة عامة. وبالتالي؛ يمكن القول بأن الدور الرئيس في الحملة الصليبية الأولى اضطلع به الفرنسيون.

وتألفت الحملة الصليبية الأولى من ثلاثة جيوش؛ وكما فعلت عصابات بطرس الناسك من قبلهم، قام الصليبيون بنهب وتخريب الأماكن التي اجتازوها وارتكبوا كل أشكال العنف والجرائم.ثيوفيلاكت Theophylact - رئيس أساقفة بلغاريا وشاهد على هذا العبور كتب في إحدى رسائله يقول : "شفتاي مطبوقتان؛ لأنه - في المقام الأول - جاء مرور "الفرنجة"، أو غزوهم، أو لا أدري ما يمكن أن يدعوه الإنسان، مفاجئاً لنا وأثر علينا جميعاً، إلى درجة أننا أصبحنا لا ندرك من نحن. لقد شربنا بما فيه الكفاية من كأس الغزو المرّ وبما أننا معتادون على الإهانة من "الفرنجة"، فإننا سنتحمل هذه المحنة ونتجاوزها بشكل أيسر من ذي قبل، لأن الزمن يُعد مُعلماً جيداً للجميع."[1]

وقبل المضي في تتبع مسيرة هذه الحملة في آسيا الصغرى يجدر

---

[1]- Epistola, XI; ed. Migne, Patrologia Graeca, cxxvI,324-25. Vasiliev, 406.

بنا أن نتوقف قليلاً لنتعرف إلى العوامل التي سوف تتحكم في تلك المسيرة، أو تؤثر في نشاطها؛ فمن ناحية الصليبيين ثمة عاملان على قدر كبير من الأهمية هما: أهداف الأمراء المغامرين، ومصالح المدن الإيطالية التجارية. ذلك أنه من المعروف أن من الأمراء الذين انضموا إلى الحملة الصليبية الأولى، و اشتهروا أنهم من السياسيين ولم يكونوا من المتحمسين للدين، و أظهروا النيّة منذ البداية في الحصول على كسب دنيوي، كان الأمير النورمندي بوهيموند الذي يقول عنه باركر "يصح اعتباره مصدر إلهام بقية الأمراء و مُثير همّتهم". ويبدو أن سياسة بوهيموند التي تنطوي على امتلاك إمارة بالشرق، قد أوحت إلى بلدوين شقيق غودفري دي بويون بأن ينافسه في هذه الناحية ويقوم بتأسيس إمارة له في الرها في مارس سنه (١٠٩٨). وأما ريموند الجيلي قائد البروانسيين وثالث الأمراء الكبار في الحملة الصليبية الأولي، الذين غلبت عليهم الصفة السياسية ، فإنه لم يختلف عن بلدوين فيما يضمره من حسد لبوهيموند؛ إذ دفعه الحقد إلى أن يحاول أن ينتزع أنطاكية من بوهيموند، ولما فشل في ذلك حاول أن يؤسس لنفسه إمارة طرابلس جنوبي أنطاكية حتى يمنع بذلك نمو سلطان بوهيموند وامتداده. وأما أثر المدن الإيطالية، فمع أنه لم يصبح محسوسا إلا بعد انتهاء الحملة الصليبية الأولى، فإن السفن الإيطالية التي ترددت على الموانئ السورية أثناء الحملة أسهمت بشكل ملحوظ بما كانت تمد به الصليبيينمن مؤن وذخائر في حصار بيت المقدس ثم سقوطها، واستطاعت أيضا المساعدة في إقامة الأمارات الأخرى التي أسسها بوهيموند وريموند الجيلي. وبذلك

يكون للقوة البحرية أثر واضحٌ في تقرير ما أحرزه الصليبيون من انتصارات.

موقف الإمبراطورية البيزنطية من الحروب الصليبية :

لقد صار من المتعارف عليه بين المؤرخين المهتمين بالشأن البيزنطي وعلاقته بالحروب الصليبية قيام الإمبراطور أليكسيوس كومنينوس بإرسال وفد إمبراطوري إلى البابا أوربان الثاني يحمل رسالة يطلب الإمبراطور فيها مساندة الغرب ضد الضغط المتزايد الذي كانت تتعرض له إمبراطوريته من قبل المسلمين السلاجقة.

وقد لعبت بيزنطة دوراً مهماً في حقبة الحروب الصليبية الأمر الذي يجعل من دراسة الإمبراطورية الشرقية أمراً ضرورياً حتى يتسنى لنا الفهم التام والكامل لجذور الحروب الصليبية وتطورها. لأن أغلب الذين درسوا الحروب الصليبية عالجوا المشكلة من وجهة نظر غربية بحتة، مع الإصرار على جعل الإمبراطورية البيزنطية تبدو كبش فداء تتحمل كل الأخطاء التي ارتكبها الصليبيون.

لم تكن العلاقات بين الصليبيين القادمين من الغرب والبيزنطيين طيبة أو حتى مرضية؛ فالشك وعدم الثقة متوفرين عند كلٍ منهما، فضلاً عن أوجه الاختلاف بينهما في شتى المجالات، الأمر الذي أدى إلى توسيع شقة الكراهية بين الطرفين؛ ذلك أن القسم الغربي كان قد اصطبغ بالصبغة اللاتينية البحتة، بينما اصطبغ القسم الشرقي بالصبغة الهللينية الصرفة. من ثم فإن الاختلاف المذهبي، واللُغوي، والتباين الحضاري، كل ذلك كان من العوامل التي زادت في التباعد

بين الجانبين وإثارة المشاكل بينهما، وهكذا، يمكن القول بأن المواقف بين الجانبين كانت سلبية في عمومها على الصعيدين الرسمي والشعبي. من ثم لم تكن ثمة أرضية مشتركة للقيام بأي عمل جماعي.

لقد جاء تشكّل الحملة الصليبية الأولى بالنسبة للإمبراطور أليكسيوس أمراً مفاجئاً وفي الوقت نفسه كانت مفاجأة غير سارة؛ لأنه لم يكن يتوقع أن تأتيه المساعدة في هيئة حملة صليبية، كما أنه لم يكن يرغب في ذلك. لأنه حينما طلب عناصر من المرتزقة من الغرب كان بغرض حماية القسطنطينية، بمعنى حماية بلاده، وأن أي فكرة تتعلق بتحرير الأرض المقدسة – والتي تعد خارجة عن سلطة الإمبراطورية لأكثر من أربعة قرون – تأتي بالنسبة إليه في المرتبة الثانية من حيث الأهمية. حقاً، لقد سبق للإمبراطور وأن طلب المساعدة العسكرية بواسطة البابوية، ولكنه أرادها في هيئة فرق أجيرة تأتمر بأمره للدفاع عن القسطنطينية. ذلك أنه حينما دعا البابا أوربان الثاني في مارس من عام (١٠٩٥) إلى انعقاد مؤتمر ديني في مدينة بياتشنزا Piacenza الإيطالية لمعالجة بعض التعقيدات الحاصلة في أوروبا آنذاك، ومناقشة الإصلاحات المستقبلية، كان وفداً بيزنطياً حاضراً ليقدم طلب الإمبراطور أليكسيوس المتضمن الحصول على مساعدة عسكرية من الغرب الأوروبي للتصدي لزحف السلاجقة على آسيا الصغرى، ووقف تهديدهم للقسطنطينية.

لم تكن فكرة قيام حملة صليبية موجودة عند الدولة البيزنطية خلال القرن الحادي عشر؛ ذلك أنه لم يكن ثمة تعصب ديني من جانب

الإمبراطور ولا من جانب الشعب، كما أنه لم يظهر بينهم دعاة لحملة صليبية كما يبدو أن الإمبراطورية فقدت كل أمل في استرجاع الأرض المقدسة بسبب خطر السلاجقة المتزايد في آسيا الصغرى خلال القرن الحادي عشر؛ من ثم فإن مشكلة فلسطين كانت بالنسبة لبيزنطة شيء مثالي، لا صلةلها بمصالح الإمبراطورية الحيوية. لقد كانت الإمبراطورية في عامي (١٠٩٠)، (١٠٩١) على حافة الانهيار، وحينما تقدم أليكسيوس بطلب مساعدة الغرب جاءه الرد في هيئة حملة صليبية لم تكن متوقعة ولا مرغوب فيها؛ من ثم صار همّه محصوراً في كيفية إنقاذ إمبراطوريته. لأنه بالنسبة إليه وإلى شعبه لا يختلف الصليبيون وما يشكلونه من خطر على بلاده عن ذلك الخطر الذي تتعرض له من طرف السلاجقة، ولأن فكرة حرب صليبية كانت غريبة تماماً بالنسبة للعقلية البيزنطية في أواخر القرن الحادي عشر. ومن ثم يمكن القول بأن الحملة الصليبية الأولى كانت مشروعاً أو مغامرة غربية بحتة، تشدّها صلة سياسية بسيطة إلى بيزنطة. وباختصار فإن الموقف البيزنطي تجاه الحملة الصليبية الأولى وتجاه الحركة الصليبية برمتها كان سلبياً على الصعيدين الرسمي والشعبي. حقاً، قدّمت الإمبراطورية بعض الفرق لمساندة الصليبيين، ولكن تلك الفرق البيزنطية لم تتجاوز آسيا الصغرى؛ لأن بيزنطة لم تشارك أبداً في ما وقع من حروب في سوريا وفلسطين[1].

(1)M. Canard, "La Guerre sainte dans le monde islamiaue et dane le monde crelien, "Revue africane, Lxxix(1936), 605- 23.

وقد اتهم بعض المؤرخين أليكسيوس والإغريق عموماً بالخيانة وعدم الولاء للقضية الصليبية. ولكن هذه الاتهامات يجب أن ترفض، وبخاصة بعد ما اتضح للسلطات البيزنطية ما قام به الصليبيون من نهب وتخريب واشعال الحرائق أثناء مسيرتهم. كذلك يجب رفض توصيف جيبون القاسي وغير التاريخي، والذي يصف فيه أليكسيوس " بالثعلب الذي يقتفي أثر الأسد ليلتهم البقايا" لأن شخصية أليكسيوس وتاريخه وما اتصف به من مقدرة إدارية وعسكرية لا تناسب هذا الوصف. لقد أظهر أليكسيوس نفسه كرجل دولة أدرك جيداً ما يمثله الصليبيون من خطر وتهديد كبيرين على إمبراطوريته، لذلك، فإن همه الأول كان مرتكزاً على التخلص منهم بأسرع ما يمكن ونقلهم إلى آسيا الصغرى للقيام بالمهمة التي جاءوا من أجلها. ويمكن وصف الجو الذي ساد بين الطرفين البيزنطي والصليبي بأنه جواً سادته الكراهية والضغينة وعدم الثقة المتبادلة وذلك ليس بسبب ما وقع بين الكنيستين الشرقية والغربية من انفصال تام منذ سنة (١٠٥٤) وحسب، ولكن بسبب العداءات السياسية أيضاً التي لم تُحسم إلا بقوة السيف فيما بعد. وفي أواخر القرن التاسع عشر كتب أحد الإغريق المثقفين المتنورين الوطنيين يقول :

"بدا الصليبيون للعين الغربية أنهم يمثلون حركة عظيمة ونبيلة بكل المقاييس دوافعها دينية بحتة، في الوقت الذي بدت أوروبا فيه ... بأنها تضحّي بنفسها من أجل النصرانية ومن أجل الحضارة وذلك بسبب

ويؤكد كنراد أيضاً على أن فكرة حملة صليبية تشن حرباً مقدسة ليس لها وجود في بيزنطة خلال القرن الحادي عشر.

شبابها القوي وأمجادها الفكرية. من الطبيعي إذن، ما يزال ثمة شيء من الشرف والكبرياء يحفّز أي عائلة من الأرستقراطية اللاتينية التي تستطيع تتبع شجرة نسبها إلى أولئك الذين حاربوا تحت راية الصليب. ولكن حينما شاهد الشرقيون حشود الأُميين البرابرة ينهبون ويسرقون ويدمرون مقاطعات النصارى والإمبراطورية الرومانية، ورأوا أولئك الرجال الذين دعوا أنفسهم المدافعين عن الإيمان وهم يقتلون قساوسة المسيح لالشيء سوى أنهم يختلفون عنهم في المذهب، فإنه من الطبيعي ألا يصدّقوا أن مثل هذه الحركة كانت في الأصل مدفوعة بأهداف دينية وأنها تمتلك مسحة أو سمة نصرانية مميزة ... لقد شكل ظهور الصليبيين على مسرح التاريخ المشهد الأول في المأساة النهائية للإمبراطورية"[1].

وعلى كل حال، فإن المؤرخ المختص بشؤون الإمبراطور أليكسيوس المدعو كالاندون أو تشالاندون Chalandon لم يتردد في إطلاق الصفات – ولو بشكل جزئي – على جميع الصليبيين التي نعت چيبون بها أتباع بطرس الناسك: "إن اللصوص الذين رافقوا بطرس الناسك لم يكونوا سوى حيوانات متوحشة، ولم يتحلوا بأي عقلانية أو إنسانية"[2].

"The robbers who followed Peter the Hermit, were wild beasts, without reason and humanity."

---

[1] D. Bikelas, Le Grece byzantine et moderne, (Paris, 1893), 29. Vasiliev vol, 2, pp. 406 – 7.

[2] Chalandon, F. Histoire de le Premier Croisade jusqua P' election de Godefroi de Bouillon, (Paris, 1925), PP. 159,60, in Vasilieve, op. cit. p. 407

وأما موقف الإمبراطور أليكسيوس من الحملة الصليبية الأولى وقادتها فقد انقسم إلى شقين: ارتكز الشق الأول على استغلال الحشود الصليبية و استخدامها في استعادة الأراضي التي خسرتها بيزنطة للسلاجقة وذلك عن طريق إصراره على أن يقوم قادة الحملة بتأدية يمين الولاء له، الأمر الذي يجعلهم يلتزمون من خلاله بتسليم المدن والمناطق التي يستولون عليها ، وكانت في حوزة بيزنطة حتى سنة (١٠٧١). وأما الشق الثاني فيجوز للصليبيين الاحتفاظ بالمدن التي يستولون عليها والتي خسرها البيزنطيون للسلاجقة بعد سنة (١٠٧١) ويكتفي منهم بالولاء ودفع الجزية. وقد أدت هذه السياسة إلي تكدير العلاقات بين الجانبين علي الرغم من موافقة الصليبيين عليها بعد تردد ووقوع بعض المنازعات الأمر الذي كان له أثر كبير في مستقبل الوجود الصليبي في الشرق بشكل عام، وأضاف إلي الحقد القديم حقدا جديداً بلغ الذروة في أحداث سنة (١٢٠٤) من احتلال عناصر الحملة الصليبية الرابعة للقسطنطينية وإسقاط الحكومة الشرعية وتأسيس إمبراطورية لاتينية. أضف إلي ذلك الكراهية الشديدة التي يضمرها أباطرة آل كومنين للإمارة التي أنشأها بوهيموند في أنطاكية، علي الرغم من يمين الولاء الذي حلفه للإمبراطور البيزنطي.

وأما فيما يخص سوريا وفلسطين فلم يطالب الإمبراطور بهما بسبب خروجهما عن سيطرة الإمبراطورية منذ أمد بعيد، واكتفى

بادعائه السيادة عليها وحصوله على ولاء حكامها[1]، وفي مقابل ذلك وعد الإمبراطور بدعم عسكري ومساعدة في التموين.

الوضع في آسيا الصغرى و سوريا :

وأما حالة آسيا الصغرى وسوريا في سنة (١٠٩٧)، فهي من نواحي عديدة ملائمة جدا لنجاح الصليبيين؛ فقد تفككت عُرى الإمبراطورية السلجوقية منذ وفاة السلطان ملكشاه في سنة (١٠٩٢)، و اندلعت الحرب الأهلية بين الورثاء وانتهت بقيام عدد من السلطنات كان من أهمها سلطنة إيران التي تضم العراق، و سلطنة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى التي أسسها وحكمها قليج أرسلان باعتباره سلطانا مستقلا، في حين أن سوريا كلها كانت مستقلة فعلا. علي أن الضعف لم يلحق بسوريا بسبب انفصالها عن جسم الإمبراطورية السلجوقية فحسب ولكن بل أيضا بسبب ما انتابها من انقسامات داخلية، وما تعرضت له من هجمات الدولة الفاطمية بمصر من الخارج. ففي سنة (١٠٩٥) تولى الأخوان رضوان ودقاق أبناء تُتُش، حكم حلب و دمشق، ولكن الحرب لم تلبث أن اندلعت بينهما بسبب طمع كل منهما في أملاك الآخر. واشترك ياغي سيان حاكم أنطاكية فيما وقع بين الأخوين من منازعات، ولم يتوقف رضوان وياغي سيان عن مهاجمة دقاق إلا بعد أن بلغتهما الأنباء باقتراب الصليبيين، فأسرع ياغي سيان إلي أنطاكية لاقتراب الصليبيين منها في خريف (١٠٩٧).

وفي تلك الأثناء لم يتوان حكام الدولة الفاطمية في مصر من

---

[1] A.A. Vasiliev, op. cit. p. 409.

الإفادة من هذه المنازعات الأخوية ومن الارتباك الذي تسبب فيه قدوم الصليبيين؛ فمن المعروف أن الفاطميين كانوا على المذهب الشيعي، وكان يفصلهم شقاق كبيرعن الحكام العباسيين في بغداد الذين يتّبعون المذهب السّني، وكانوا واقعين تحت سيطرة سلاجقة سلطنة إيران. وكل ذلك كان معروفًا لدي الصليبيين الذين أدركوا تمام الإدراك الفجوة التي تفصل بين الفاطميين في القاهرة وبين الأمراء السّنة في سوريا وأحسنوا استغلالها. ومن الجدير بالذكر أن الاختلاف الديني بين القاهرة وبغداد زاد من حدته ما غلب عليه من طابع الاختلاف السياسي الذي أدي بدوره إلي عرقلة حركة المسلمين وتباينها في مواجهة الصليبيين؛ إذ استغل الفاطميون ما وقع بين أمراء سوريا من حروب و منازعات، و ما أثاره زحف الصليبيين من الخوف والرعب، وقاموا بالاستيلاء علي بيت المقدس وانتزاعه من سقمان ابن الأمير أرتق في أغسطس سنه (١٠٩٨) الذي كان يحكمه نيابة عن السلاجقة.

الصليبيون في آسيا الصغرى:

بدأ الصليبيون يعبرون البسفور في مايو سنة (١٠٩٧)، و يهاجمون ممتلكات قليج أرسلان، و كان أول عمل قاموا به هو الاستيلاء على مدنية نيقيا في يونيو (١٠٩٧) التي استسلمت للفرقة البيزنطية الأمر الذي أثار حفيظة الصليبيين وغضبهم و كدّر العلاقات بينهم وبين الإمبراطور البيزنطي، لأنهم حُرموا من متعة نهب المدينة وسلبها وتقتيل سكانها. وفي أول يوليو أحرز الصليبيون أول انتصار لهم على جيش قليج أرسلان في أول معركة حقيقية عند دورلايوم ثم واصل الصليبيون تقدمهم نحو

أنطاكية. وفي أثناء الطريق انسحب بلدوين وتوجّه نحو الشرق إلى الرها حيث نجح في تأسيس أول إمارة صليبية على أرض الشرق في ١٥ مارس (١٠٩٨).

سقوط أنطاكية:

ظهر الصليبيون أمام أسوار أنطاكية في ٢١ أكتوبر سنة (١٠٩٧)، و باشروا في حصارها الذي استمر إلى ٣ يونيو (١٠٩٨) و من الطبيعي أن يلعب بوهيموند الدور الأبرز والأهم في هذا الحصار وفي سقوط المدينة، نظرا لأنه وجد في ذلك فرصة مواتية لتحقيق حلمه في تأسيس إمارة بالشرق، ولأنه كان على يقين بأن الإمبراطور اليكسيوس لن يسمح بذلك عن طيب خاطر؛ خاصة وأن الأمر يتعلق بأنطاكية وأهميتها للدولة البيزنطية، فضلاً عن العداء التقليدي بين البيزنطيين والنورمنديين. لذلك قرر بوهيموند أن يعمل كل ما في وسعه للاستئثار بالمدينة وامتلاكها رغم كل العقبات؛ فأحبط محاولات كل من دُقاق ورضوان لمساعدة المدينة في ٣١ ديسمبر (١٠٩٧) و٩ فبراير (١٠٩٨) على التوالي، كما سهّل الاتصال بين الجيوش الصليبية التي تحاصر أنطاكية وبين السفن الجنوية الراسية في ميناء سان سيمون التابع للمدينة في مارس (١٠٩٨)، وهو أمر أفاد كثيرا في معالجة ما كان يعانيه الصليبيون من نقص في المؤن والعتاد والمواد اللازمة لبناء القلاع التي أسهمت كثيرا في إرهاب السكان وإدخال الرعب في نفوسهم. وتمكن بوهيموند - في آخر الأمر- من الاستيلاء على المدينة بفضل خيانة أحد قادة الأبراج من الأرمن المدعو فيروز. وعلى العموم دخل

الصليبيون أنطاكية في٣ يونيو (١٠٩٨) ولكنهم لم يتمكنوا من السيطرة عليها إلا في اليوم الثامن والعشرين.

علىأن السعي وراء تحقيق أطماع شخصية تجلي في أبهي صوره في النزاع الذي احتدم بين بوهيموند و ريموند الجيلي حول الاستئثار بحكم أنطاكية، الذي استمر لبضعه شهور، ولم ينته إلا في يناير سنة (١٠٩٩). وقد قام ريموند بتعويض ذلك فيما بعد عن طريق البدء في تأسيس كونتية طرابلس.

سقوط بيت المقدس:

ضجر العامة من الصليبيين من جرّاء استمرار النزاع بين قادتهم، ومن الأحوال السيئة التي كانوا يعيشونها؛ لذلك عرض القسم الأكبر من الجيش الصليبي على ريموند تولي القيادة العليا كتعويض معنوي له. وقد قبل ريموند العرض. وفي ٣١ يناير استأنفت الحملة مسيرها، وفي ١٥ يوليو (١٠٩٩) سقطت المدينة المقدسة في أيدي الصليبيين بعد حصار استمر ما يزيد على شهر، و أجروا فيها مذبحة مروّعة سقط ضحيتها كل واحد وقع تحت نصلة القتلة الصليبيين بغض النظر عن دينه، أو عرقه، أو عمره.

وضع السكان المحليين بعد سقوط القدس:

وقام العرب المسلمون بهجر قراهم في الجليل والضفة الغربية بعد سقوط القدس حتى لا يظلوا تحت حكم الصليبين الذين وجدوا صعوبة كبيرة في زرع الأرض وحصادها. وأما الذين لم يغادروا فقد استمروا في

فلاحة الأرض وأن الذي تغير هو السيد المحلي الذي يدفعون له الضرائب. وتم طرد من بقى من المسلمين في مدينة القدس حتى بدا كأن المدينة قد أُفرغت من سكانها لأن العرب المسلمين كانوا يشكلون الأغلبية الأمر الذي جعل المؤرخ الصليبي وليم الصوري William of Tyre " يقول أنه لا يوجد من الصليبين النصارى ما يملأ شارع من شوارع المدينة."

وأما في السنوات التي تلت احتلال القدس فقد أبقى الصليبيون على المسلمين في المدن التي استولوا عليها ماعدا قيصرية حيث أجروا فيها مذبحة مروعة ضد سكانها من المسلمين المدنيين، وفي جميع الأحوال كان الأثرياء منهم يغادرون المدن التي يتم احتلالها، وتم استبدالهم بالمعمرين الإيطاليين والنصارى المحليين. ومع ذلك فقد بقي جزء من السكان المسلمين في كل مكان استولى الصليبيون عليه خاضعين لهم ومستسلمين لعبوديتهم.

وكان الصليبيون الذين استقروا في الشرق يحذوهم الأمل في أن تأتي أعداد كبيرة من نصارى الغرب إلى فلسطين لبناء مملكة لاتينية قوية تحمى القبر المقدس؛ ولكن هذا الأمل تلاشى بعد الكارثة التي نزلت بالحملة الصليبية في الأناضول سنة(١١٠١).

موقف الأمراء المسلمين من الحملة الصليبية الأولى:

اتخذت الحملة الصليبية - بعد مغادرتها أنطاكية - الطريق الساحلي، وفي شمالي طرابلس وقف ريموند عند عرقة وفرض عليها حصاراً فاشلاً. وقبل ذلك اشترى أمير شيزر عدم اعتداء الصليبيين على مملكته بما قدمه لهم من أموال وأدلاّء، واقتدى بنو عمّار في طرابلس

بمسلك أمير شيزر فبذلوا الأموال للصليبيين - وأما الموصل، وحلب، ودمشق فقد اتخذت موقف السكوت بعد الهزيمة التي لحقت بهم عند أنطاكية. وفي ١٩ مايو عبر الصليبيون نهر الكلب وبذلك يكونوا قد دخلوا المنطقة التابعة لحكم الفاطميين الذين عرضوا التحالف على الصليبيين الذين رفضوه لأن الفاطميين ربطوه بشرط يمتنع الصليبيون بموجبه من الدخول إلى فلسطين. وبهذه الدرجة من السذاجة كان فهم المسلمين - بشكل عام - لطبيعة الحملة الصليبية. وسارت الحملة عبر بيروت وصيدا وصور وعكا وحيفا ثم يافا حيث توجّهت إلى الداخل، إلى الرملة ومنها إلى القدس.

إذن الموقف العام للحكام المسلمين كان عدم التعرض للحملة عند مرورها عبر أراضيهم، وأنهم اشتروا عدم تعرض الصليبيين لأماراتهم بما دفعوه لهم من أموال وما قدموه لهم من معونة؛ إذ كان كل همّهم رؤية تلك الحشود الصليبية تعبر أراضيهم بأقل خسائر ممكنة.

قيام المملكة الصليبية

لم تكد دماء سكان مدينة القدس من المسلمين تجف حتى دب الخلاف بين القادة الصليبيين حول مصير المدينة وشكل الحكومة التي يجب أن تقام فيها، وتبعيتها. فبعد جدال تم الاتفاق على أن يتولى رئاسة الحكومة كودفري أو غودفريGodfrey أمير اللورين، وأن يتولى دامبرتDaimbert- رئيس أساقفة مدينة بيزا الإيطالية الأسبق – رئاسة كنيسة القدس بعد أن لعب دورًا أساسيًا في إكراه آرنولفArnulf على التنحي من منصب الأسقفية؛ ومن ثم صارت المدينة تابعة – من خلال كنيستها – للبابوية مباشرة وهو ما كان دامبرت يسعى إلى تحقيقه. ولكن حكم غودفري لم يدم سوى بضعة أشهر، وتم انتخاب شقيقه بلدوين Baldwin ليصبح أول ملك للمملكة الصليبية. وكان ذلك في يوم عيد الميلاد من سنة (١١٠٠)؛ وبذلك تأسست مملكة علمانية إقطاعية وراثية عوضًا عما كان يسعى إليه الفريق المناصر لدامبرت من إقامة مملكة أوتقراطية (دينية) تابعة لكنيسة روما .

إذن فالنتيجة المباشرة التي ترتبت على الحملة الصليبية الأولى هي؛ تأسيس مملكة بيت المقدس وعدد ثلاث إمارات صليبية : الرها في شمال الجزيرة الفراتية، وأنطاكية في آعالي بلاد الشام، وأخيرًا كونتية طرابلس التي بدأ في تأسيسها ريموند الجيلي قبل موته في سنة (١١٠٥)، ولكن لم تتم السيطرة على المدينة وقلعتها إلا في سنة (١١٠٩). وتُعد جميعها توابع للملكة الصليبية الأم، وحكامها أتباع لملكها

بلدوين الأول وذلك حسب المفاهيم و القوانين الإقطاعية الغربية. إضافة إلى ذلك تمكن بلدوين الأول – بطريقته الخاصة – من فرض هيمنته على **البطريرك دامبرت** الذي اشتهر بالجشع وحب جمع الثروة أكثر من اهتمامه بشؤون الكنيسة؛ ذلك أن دامبرت أتى إلى الشرق على رأس أسطول يتألف من عشرين سفينة، وبعد أن فشل في حصار مدينة اللاذقية واصل تقدمه إلى مدينة القدس. ومن ثم فإن هيمنة بلدوين عليه تمثل سمو السلطة الزمنية على السلطة الدينية. وأما تبعية الإمارات الصليبية الثلاثة لمملكة بيت المقدس وما تقدمه من خدمات لها، فقد جاءت مقابل ما توفره الأخيرة من حماية ومساعدات لتلك الإمارات.

وتُعد مدينة القدس و المناطق المحيطة بها، إضافة إلى مدن كل من صور Tyre، وعكا Acre أراضٍ إقطاعية من أملاك الملك الخاصة الواقعة تحت سلطته المباشرة. وعلى الرغم من أنه قد صارت هناك نزعة نحو توريث الإقطاعات، فإن الملوك كانوا كثيرًا ما يتدخلون لحل النزاعات الناجمة عن التوريث وتطبيق ما يتعلق بذلك من قوانين متضمنة في دستور القدس Assizes of Jerusalem والذي يتألف في جوهره من القوانين و المفاهيم الإقطاعية الغربية مع بعض التحويرات التي تتماشى مع ظروف المملكة الصليبية في القدس وتأسست عليها حكومتها.

وأما اقتصاديًا فقد كانت مملكة القدس فقيرة إلى حدٍ ما؛ إذ لم تكن تمتلك كثيرًا من الموارد واعتمدت على التجارة مع المسلمين، وعلى النشاطات المصرفية، وفرض الضرائب على الحجاج حتى تتمكن

من مواصلة القيام بأعمالها الروتينية وتوفير الحماية لرعاياها. وعلى الرغم من وجود بعض الأراضي التي يمكن استغلالها في الزراعة، فإن المملكة الصليبية كثيرًا ما تضطر في سنوات الجفاف والجدب إلى استيراد الحبوب من سوريا لتوفير الغذاء لسكانها.

❖ اتساع المملكة :-

اعتمد بلدوين الأول (١١٠٠) – (١١١٨) على البابوية وعلى المدن الإيطالية التجارية بيزا، وجنوا، و البندقية في تنفيذ خططه التوسعية. فعلى الرغم من فشل الحملة الصليبية التي نظمها البابا باسكال الثاني Paschal II سنة (١١٠١) بغرض إمداد مملكة بيت المقدس بمعونات عسكرية جديدة تساعدها في الاستيلاء على المناطق المجاورة وتحطمها في آسيا الصغرى، فإن بلدوين أفاد كثيرًا من الخصومات و النزاعات الدائمة بين جيرانه من الحكام المسلمين، إضافة إلى ما تلقاه من مساعدات من المدن الإيطالية، وفي إحدى المرات من أسطول نرويجي وصل إلى المنطقة في سنة (١١١٠)، في احتلال المدن الساحلية المطلة على البحر المتوسط.

وهكذا لم تحل سنة (١١١٢) حتى كانت المدن الساحلية : أرسوف، وقيصرية، وعكا، وبيروت، وصيدا قد سقطت في أيدي الصليبيين، ولم يبق خارج سيطرتهم سوى صور وعسقلان. كما بُدئ في تشييد القلاع في منطقة الجليل و التوسع باتجاه الجنوب حيث تم تشييد حصن الشوبك في سنة (١١١٦) جنوبي البحر الميت، وإضافة منطقة إيلات على خليج العقبة. وتُعد هذه الأخيرة مثلها في ذلك مثل حصن

الكرك[*] من المواقع الاستراتيجية التي كان لها دور بارز في فصل مصر عن دول المشرق، و السيطرة على طرق القوافل ومنع قيام أي اتحاد يمكن أن يهدد مصيرهم.

و الواقع أن ما حدث من نمو في المملكة الصليبية في بيت المقدس إنما يرجع معظمه إلى مصالح المدن الإيطالية وليس إلى الحماس الديني للصليبيين؛ إذ حدث بعد الهزيمة الماحقة التي تعرضت لها الحملة الصليبية سنة (١١٠١) على أيدي أمراء سواس وحلب وحَّران في آسيا الصغرى، أن بلدوين لم يعد ينتظر من الغرب من مساعدات سوى التي تأتي من المدن الإيطالية. وعلى الرغم من الحضور المبكر لأساطيل تلك المدن في ميناء يافا منذ (١٠٩٩)، فإن الجنويين هم الذين خدموا الملك بلدوين الأول أكثر من غيرهم.

ومات بلدوين سنة (١١١٨) وخلفه على عرش المملكة الصليبية ابن عمه بلدوين الثاني الذي كان يحكم إمارة الرها. ويُعد سقوط مدينة صور سنة (١١٢٤) من أهم الأعمال التي قدمها بلدوين الثاني لمملكة بيت المقدس. وقد تم ذلك بمساعدة البندقية التي تحصلت على امتيازات تجارية تمثلت في منحهم قسمًا من المدينة. وعقب موته في سنة (١١٣١) خلفه على عرش المملكة فولك الأنجوي Fulk of Anjou بتوصية من لويس السادس ملك فرنسا وصهر بلدوين الثاني. وفولك هذا من القادمين الجدد إلى الأراضي المحتلة، ويُعد اعتلاؤه العرش سنة (١١٣١) نقطة تحول مهمة في تاريخ المملكة الصليبية؛ ذلك لأنه في تلك السنة

---

[*] حصن الكرك : تم تشييده حوالي سنة (١١٤١) في عهد الملك فولك .

بلغت مملكة بيت المقدس الصليبية أقصى مدىً لها في التوسع هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى سجلت هذه السنة موت آخر اثنين من قادة الحملة الصليبية الأولى – وهما بلدوين وجوسلين وبداية عصر جديد يمثله الملك فولك، ومن ناحية ثالثة تمثل سنة (١١٣١) الحد الزمني الذي اكتمل فيه نمو مملكة بيت المقدس؛ لأن الإمارات الصليبية الثلاثة دخلت جميعها في طاعتها، واعترفت بسلطانها، فامتدت حدودها من بيروت شمالاً حتى إيلات و العريش جنوبًا.

وبما أن اعتلاء الملك فولك (١١٣١ – ١١٤٣) العرش يمثل نهاية اتساع المملكة الصليبية، لذلك تركزت سياساته حول الحفاظ على ما تم تحقيقه من مكتسبات. ويرى بعض المؤرخين في ذلك توجهًا حكيمًا؛ لأن حكمه تزامن مع ظهور الدولة الزنكية ومؤسسها عماد الدين الذي أكسبته الانجازات التي حققها لقب " المجاهد الأكبر ضد الصليبيين".

❖ **الصليبيون ودمشق :-**

كان بلدوين الثاني يتحيّن الفرص للانقضاض على دمشق، لذلك فلم يكد يسمع بموت طغتكين حتى أرسل مبعوثًا إلى أوربا للحصول على الدعم العسكري، بعد أن بيّن للأوربيين أنه جعل الاستيلاء على دمشق هدفًا له.

وكان طغتكين قد وافق في نوفمبر من سنة (١١٢٦) على منح حصن بانياس للباطنية(*) الواقع على الحدود مع دمشق، على أمل الإفادة من جهودهم في صد الاعتداءات الصليبية. ولما خلف تاج الملك بوري أباه طغتكين في حكم دمشق قرر التخلص من الباطنية نظرًا لما صاروا يشكلونه من خطر يتهدد أمن الأتابيكية ونظامها. فاندلعت الثورة ضدهم فجأة في سبتمبر سنة (١١٢٩)، وتم اغتيال حاميهم الوزير المزدقاني، كما تعرض كثير منهم للقتل. فارتاع زعيمهم إسماعيل في بانياس ولم يجد أمامه من سبيل لإنقاذ أتباعه إلا التفاوض مع الصليبيين. وكانت تلك هي الفرصة التي ينتظرها بلدوين الثاني؛ لذلك لم يلبث أن قَدِمَ إلى بانياس في شهر نوفمبر، وبعد أن تم استلام الحصن من الباطنية واصل تقدمه نحو دمشق. ولكن محاولته باءت بالفشل؛ إذ تصدى له جيش بوري وأرغمه على الانسحاب إلى بانياس ومنها عاد الجيش الصليبي إلى فلسطين.

وقد اتخذ الملك فولك من الاجراءات ما يكفل له السيطرة التامة على الإقليم الواقع شرقي البحر الميّت وجنوبه؛ فقام بمنح حصن الشوبك لأحد اتباعه المقربين، الذي هيأ للصليبيين سيطرة غير محدودة على طرق القوافل التي تربط مصر ببلاد العرب و الشام. كما أمر بتشييد حصن استراتيجي منيع في سنة (١١٤١) في منطقة مؤاب إلى الجنوب الشرقي من البحر الميّت ليتم ضبط الطرفين الشمالي و الجنوبي للبحر

(*) الباطنية : وهي الطائفة المعروفة عند الغرب باسم " الحشاشين "، وهي طائفة شيعية امتهنت الاغتيال، وكان لها دور مدمر في فترة الحروب الصليبية بسبب ما قامت به من اغتيال قيادات إسلامية.

الميّت، على تل أطلق عليه المؤرخون اسم " صخرة الصحراء Petra Deserti" اشتهر باسم ((كَرَكْ مؤاب)). وكان لموقع هذا الحصن من الأهمية ما جعله يسيطر على الطريق الوحيدة السالكة الممتدة من مصر وغربي بلاد العرب وبلاد الشام، فضلاً عن قربه – إلى حدٍ ما – من نهر الأردن .

وعلى الرغم من علاقاته المتدهورة في شمال الشام، على الرغم من أنه لم يكن له بهذه الجهات من المكانة و السلطان ما كان لسلفه بلدوين الثاني، فإن فولك حظي بمركز وطيد ومستقر في أملاكه؛ إذ يبدو أنه تعلم الدرس الذي يقضي بأنه إذا ما أراد الصليبيون العيش بتلك الجهات، ينبغي عليهم ألا يصرّوا على الامتناع عن التفاهم مع المسلمين، بل يجب أن يبدو استعدادهم لأن يصادقوا من كان منهم أقل خطرًا.

س١/ ناقش هذه العبارة من حيث انطباقها على الكيان الصهيوني ؟

❖ علاقة المملكة الصليبية بجيرانها :-

أما وقد اكتمل نمو المملكة الصليبية على النحو الذي تم ذكره، وصار وجودها أمرًا واقعًا؛ فإن الفضل في ذلك – يعود بالدرجة الأولى – إلى ما كان سائدًا المنطقة وقتذاك من فوضى سياسية وخلافات دينية ومذهبية بين من يدينون بالولاء للعباسيين السنّة في بغداد وبين أولئك الذين يدينون بالولاء للفاطميين الشيعة في مصر، وما وقع من نزاع بين الإمارات الإسلامية وبعضها .

وقد تميزّت بداية القرن الثاني عشر بكثرة الحروب و النزاعات السياسية بين الحكام المسلمين، وبظهور كيانات سياسية لا تربطها

رابطة العصبية بالدولة السلجوقية تمثلت فيما عُرف باسم الأتابكيات وحكامها بالأتابكة(*).

ومن أشهر هذه الأتابكياتأتابكية دمشق، وأتابكية الموصل التي تُعد أعظمها جميعًا؛ لأنها كانت المركز الذي انطلقت منه الجهود الوحدوية ممثلة في مودود، وآقسنقر البرسقي، وعماد الدين زنكي.

وعلى الرغم من هذا الوضع السياسي المفكك و الخلافات الدينية والمذهبية، فإن العلاقات بين الجانبين الإسلامي و الصليبي لم تتوقف سواء العسكرية أو التجارية. ولكن حدث في سنة (١١١٠) أن بدأ السلطان السلجوقي الجديد في فارس محمد بن ملك شاه يشعر بخطورة تقدم الصليبيين في سوريا فقرر تجهيز جيش كبير وإعلان الجهاد ضد هؤلاء الدخلاء. وبسبب التحرشات الدائمة التي كانت تتعرض لها المناطق و المدن الإسلامية المجاورة لإمارتي الرها وأنطاكية الصليبيتين، ونظرًا لوقوع إمارة الرها في شمال غرب العراق، وبما أنها أقل تحصينًا من أنطاكية لذلك كانت هي المستهدفة الأولى؛ حيث وصلها الجيش الإسلامي بقيادة شرف الدولة مودود وبُدئ في حصارها في شهر مايو سنة (١١١٠).

ونظرًا لما كان قائمًا من خلافات حادة بين حكام الإمارتين الصليبيتين بلغت إلى حد إتهام بلدوين البرجي بشكل مباشر لتتكريد النورمندي حاكم أنطاكية بأنه ضليع في مؤامرة استدعاء القوات الإسلامية للتخلص منه، رفض الأخير تقديم أي مساعدة عسكرية الأمر

(*) أتابك، كلمة مؤلفة من مقطعين (أتا) ومعناها الأب أو المربي، و(بك) لقب أشبه بالأمير.

الذي جعل بلدوين الأول ملك بيت المقدس يَخرج على رأس جيش ويطلب منه في صيغة تحذيرية أنهم جاءوا إلى المشرق لمقاتلة " الكفرة " لا لمحاربة بعضهم، وأنه إذا رفض الانضمام إليهم فليس منهم وسوف يقاتلونه من دون تردد. وبذلك تم إنقاذ إمارة الرها هذه المرة.

وأما علاقة تنكريد صاحب أنطاكية بجيرانه من المسلمين فقد كانت عدائية في مجملها، ومع ذلك فقد كان على وفاق في معظم الأحيان مع رضوانRidwan صاحب حلب الذي وجد فيه تنكريد جارًا مفيدًا يمكن التفاهم معه والإفادة منه خاصة وأنه كان لا يطمئن إلى الشيعة وعلى غير وفاق مع السلطان السلجوقي، لذلك فإن رضوان كان يفضل التحالف مع الصليبيين في حربهم مع أتابكة الموصل والعباسيين في بغداد. وقد ظهر هذا التعاون في سنة (١١١١) حينما هاجم مودود الأراضي التابعة لإمارة أنطاكية.

إعلان الجهاد ضد الصليبيين

كان من نتائج الحملة الصليبية الأولى تأسيس أربع إمارات مستقلة في المشرق العربي هي : الرها ، وأنطاكية، وبيت المقدس، وطرابلس. ولم يرجع نجاحهم في ذلك إلى كثرة أعدادهم أو إلى ما تلقوه من مساعدات من المدن الإيطالية وأوروبا الغربية وجزئيًا من الدولة البيزنطية فحسب، وإنما يعود – بالدرجة الأولى–إلى ما أصاب العالم الإسلامي آنذاك من التفكك السياسي والاجتماعي والانقسام الديني، فانصرف الحكام والأمراء إلى المشاحنات الداخلية، والمنازعات الإقليمية. ويشير أحد المؤرخين إلى أنه لو تقدم مجيء الصليبيين عشر

سنوات أو تأخر قدومهم عشر سنوات، لقذف بهم المسلمون إلى البحر، وذلك بسبب ما كان عليه السلاجقة الأتراك من قوة زمن السلطان ملك شاه، وما كان للفاطميين في مصر من قوة بحرية وعسكرية ضخمة، ثم بسبب ما حدث بعدئذٍ من النزوع إلى توحيد العالم الإسلامي.

ولم يدرك المسلمون خطورة الوجود الصليبي إلا بعد أن رسَّخوا أقدامهم وبعد أن مارسوا مختلف أساليب القهر والاستبداد في حق السكان المسلمين على اختلاف مذاهبهم وأقاليمهم، ومن ثم بدأت المحاولات لإعلان الجهاد وتوحيد الجبهة الإسلامية منذ العقد الأول من القرن الثاني عشر.

على أن مفهوم الجهاد كان يبدو غريبًا عند حكام الإمارات الإسلامية في ذلك الوقت؛ ولكن هذا لا يعني أنهم لم يجدوا أنفسهم مضطرين – وذلك إذعانًا للرأي العام– أن يظهروا نوعًا من الحماس لفكرة الجهاد. وأبرز مثالاً على ذلك ابن عمار الذي قاوم حصار الصليبيين لمدة خمس سنوات قبل أن تسقط طرابلس في أيديهم؛ إذ استُقبل في بغداد استقبال المجاهدين الأبطال من طرف الخليفة العباسي و السلطان السلجوقي اللذين غمراه بالحفاوة و الهدايا ووعداه بالمساعدة ولكنهما لم يحركا ساكنًا. وهكذا فإن فكرة خوض حرب مقدسة ضد الصليبيين لم تزد – وقتذاك – عن كونها رغبة دينية A pious wish في عقول الحكام والأمراء المسلمين مجردة من أي أهمية سياسية فعلية لم يجرؤ أحد منهم على أن يتحدث عنها علانية. ولكن مع مرور الوقت وبالتدريج صار للصليبيين جذور في الأرض، واعتاد الناس على

وجودهم، وفي الوقت نفسه أضحى مفهوم الحرب المقدسة مألوفًا عند الرأي العام في الدول العربية.وانطلقت شرارة الدعوة إلى الجهاد وإعلان الحرب المقدسة ضد الصليبيين من مدينة حلب؛ فمن المعروف أن حاكمها رضوان كان على وئام مع جيرانه من الصليبيين، ومن المعروف أن كلاً من السلطان محمد السلجوقي و الخليفة العباسي المستظهر تباطاءا وما طلا في إعلان الجهاد، فضلا عن خروج حاكم عسقلان عن الفاطميين ومحاولته التحالف مع الصليبيين، وفضلاً عن شكاوى أهل حلب المتكررة من تقاعس رضوان واستكانته لتنكريد حاكم أنطاكية، فلم يلبث أهل حلب أن ضاقوا درعًا بهذا التخاذل و التواطؤ مع أعداء الإسلام، فأعلنوا الثورة على رضوان. وقد بلغ الغضب الجماهيري و التحريض على الجهاد درجة تنذر بالانفجار الأمر الذي دفع كل من الخليفة و السلطان إلى بذل الوعود بالدعوة إلى الجهاد وإعلان الحرب المقدسة ضد الصليبيين.

ولم يكن رضوان هو الوحيد الذي يتمنى بقاء الصليبيين؛ فقد كان طغتكينأتابك دمشق – وقتها – على شاكلته؛ إذ كانت لديه ميول شيعية واضحة وكان يفضّل التواجد الصليبي و التحالف معهم على الخضوع للسلطان السلجوقي السُنّي وذلك من أجل البقاء في الحكم أطول مدة ممكنة.

ولكن على الرغم من كل ذلك، فإن التحريض و الدعوة إلى الجهاد استمر في الأوساط الشعبية ينتظر فقط ظهور زعماء وقادة غيورين يمكنهم الإفادة منه وتوظيفه التوظيف الأمثل.

وفي وسط هذا الجو الملبد بالغيوم، وصلت إلى بغداد سفارة الإمبراطور البيزنطي لتأليب الخليفة و السلطان واستثارتهم ضد الصليبيين وتنكريد على وجه الخصوص. وتذكر المصادر العربية ومن بينها ابن الأثير أن هذه الأمور هيَّجت الرأي العام الإسلامي في بغداد ضد الخليفة العباسي و السلطان السلجوقي لتأخرهم في إعلان الجهاد " فهبَّت الثورة، وصاح الناس في السلطان أما تتقى الله تعالى أن يكون ملك الروم أكثر حمّية منك للإسلام، حتى أرسل إليك في جهادهم".

ونزولاً عند رغبة الرأي العام الهائج قام السلطان السلجوقي بإسناد مهمة الجهاد إلى أتابك الموصل في أبريل سنة (١١١١). فشرع مودود بمهاجمة إمارة الرها بعد أن انضم إليه جيرانه من الترك والأكراد – مثل أمراء ميافارقين، ومراغة، وأربيل، وهمدان – وبينما كانت الجيوش الإسلامية تحاصر مدينة تل باشر – ثاني مدن تلك الإمارة – طلب منهم أمير شيزر المساعدة ضد تنكريد حاكم أنطاكية؛ فتحولت الجيوش الإسلامية بقيادة مودود إلى الشام عاقدًا العزم على مهاجمة أنطاكية بمساعدة رضوان أمير حلب. ولكن رضوان ظهر على حقيقته عندما أغلق الأبواب في وجه مودود ورفض استقباله و التعاون معه ضد الصليبيين وتبيَّن أنه كان يخشى السلاجقة أكثر من خشيته الصليبيين. ومن ثم لم يبق أمام مودود سوى طغتكين أتابك دمشق، الذي يبدو أنه كان يأمل في غزو كونتية طرابلس بمساعدة مودود ، فالتقى به عند معرَّة النّعمان واتفقا على الاشتراك في حرب الصليبيين كما يذكر ابن القلانسي. ويضيف ابن الأثير أن طغتكين أظهر – أيضًا – تخوفًا ونية

فاسدة تجاه مودود؛ إذ خاف أن يقوم هذا الجيش السلجوقي الضخم بانتزاع دمشق منه فشرع في مهادنة الصليبيين سرًا. وهكذا لم تلبث جهود السلاجقة أن باءت بالفشل الذي مردَّه إلى عدم ثقتهم في بعضهم، في حين بقي مودود في منطقة نهر العاصي مع طغتكين حليفه غير الوفي.

وأما الصليبيون فما لبثوا أن أظهروا تماسكًا كبيرًا؛ فتناسوا خلافاتهم، وسرعان ما تجمعت قوات بيت المقدس وأنطاكية و الرها وطرابلس في حوض نهر العاصي ليس بعيدًا عن مودود الذي يبدو أنه تحاشى الالتحام مع هذا الجيش الضخم، وفضل دخول شيزر برفقته طغتكين والاحتماء بها. وكان ذلك حوالي منتصف سبتمبر (١١١١). وبعد وقوع بعض المناوشات عاد كل من مودود إلى الموصل و طغتكين إلى دمشق وتفكك جيش المسلمين بعد أن بدا متماسكًا في بداية الأمر.

وإذا كانت تلك الحملة السلجوقية لم تحقق شيئًا للجانب الإسلامي؛ بل على العكس أظهرت تفكك المسلمين عندئذٍ وعدم وحدتهم، فإنها حققت الكثير بالنسبة للصليبيين؛ ذلك أنها جمعت صفوف القوى الصليبية في شمال الشام وجنوبها وحققت لبلدوين ملك القدس نوعًا من الزعامة والأولوية على بقية الأمراء الصليبيين الذين دانوا له بالطاعة، وصاروا يؤلفون جبهة على قدر كبير من التماسك استمرت حتى سنة (١١٨٦) على الرغم من قيامها على أسس إقطاعية.

على أن فشل حملة سنة (١١١١) لم يثنِ مودود عن عزمه في مواصلة الجهاد ضد الصليبيين؛ ذلك أنه عندما تبدلت الأوضاع في الشام

سنة (١١١٣) واختلف طغتكين مع الملك بلدوين الأول ودخوله في صراع معه حول مدينة صور، توجّه طغتكين إلى مودود يطلب منه المساعدة ويحثه على نجدته. فعبر مودود الفرات في منتصف مايو سنة (١١١٣)، وتجمعت الجيوش الإسلامية وحاصرت مدينة طبرية فامتنعت عنهم. وعندما سمع مودود و طغتكين بقدوم الجيوش الصليبية انسحبا إلى موقع يدعى الأقحوانة إلى الجنوب من بحيرة طبرية. ولكن بلدوين لم يشأ الانتظار حتى تلحق به بقية الجيوش الصليبية فوقع في ٢٠ يونيو في كمين القوات الإسلامية وتعرض لهزيمة فادحة في معركة عُرفت باسم **معركة الصنبرة**. على أن مودود وطغتكين لم يحاولا إطلاقًا الإفادة من النصر الذي أحرزاه على بلدوين واكتفيا بالعودة إلى دمشق. ولم تمض سوى بضعة أسابيع حتى قُتل مودود على يد أحد أفراد فرقة الباطنية، وأتُهم طغتكين بالضلوع في مؤامرة اغتياله بسبب الإسراع في الإجهاز على القاتل لطمس معالم الجريمة و التخلص من أداتها.

ومهما يكن من أمر، فإن الرابح الوحيد و المستفيد من هذه الجريمة هم الصليبيون؛ لأن طغتكين لما أحس باتهام الرأي العام له لم يجد أمامه من حليف يطمئن إليه سوى الصليبين. وهكذا يقول جروسيه : " ثبت أن أمراء الشام آنذاك لم يقدّروا المصلحة العليا للعالم الإسلامي، وأنهم رفضوا التضحية بمصالحهم الخاصة في سبيل الصالح العام، الأمر الذي دفعهم إلى التحالف مع الصليبيين للاحتفاظ بإماراتهم، خوفًا من سقوطها في يد سلطنة فارس". وأكبر دليل على ذلك أنه عندما جرَّد السلطان محمد السلجوقي حملة جديدة إلى بلاد الشام بقيادة برسق

لمحاربة الصليبيين في سنة (١١١٥)، أوصاه بالانتقام من طغتكيناتابك دمشق و القضاء على إيلغازي حاكم ماردين لتخاذلهما. وفعلاً قام برسق بمحاربة الأمراء المسلمين والنصارى على حدٍ سواء؛ فاستولى على حماة التي كانت تتبع طغتكين، وهاجم قلعة فامية التابعة لإمارة أنطاكية الصليبية الأمر الذي أدى إلى التقارب بين الأمراء المسلمين و النصارى بالشام وقاد إلى عقد اتفاقية بين كل من أتابك دمشق و الوصي على حلب من جهة، وبين ملك بيت المقدس وأمير أنطاكية وغيرهم من الصليبيين من جهة أخرى، واستهدف ذلك الحلف الإسلامي – الصليبي الجديد مقاومة سلاجقة فارس ومنعهم من غزو بلاد الشام.

وتذكر المصادر العربية و الغربية احتشاد قوات دمشق وقوات حلب جنبًا إلى جنب مع قوات بيت المقدس وأنطاكية عند أفامية لقتال برسق، الذي آثر الانسحاب إلى الجزيرة على مواجهة هذا التحالف. ولكنه ما لبث أن اضطر إلى منازلة الصليبيين عند دانت في ١٤ سبتمبر (١١١٥) حيث تعرض لهزيمة كبرى نجا منها برسق بأعجوبة، وكانت آخر حملة يبعث بها السلطان محمد السلجوقي لمحاربة الصليبيين في بلاد الشام.

- **علاقة الإمارات الصليبية بجيرانها:**

إن اعتداءات الصليبين المتكررة على الأرض الواقعة تحت سيادة المسلمين جلب معه – من دون شك – تهديداً كبيراً لملوك كل من حلب ودمشق والفاطميين في مصر؛ إذ جاء التهديد بالنسبة لحلب ودمشق من

الإمارات الصليبية أنطاكية والرها، وأما الفاطميين فقد جاءهم التهديد من مملكة القدس.

لقد أُريد بتأسيس إمارة الرها أن تكون إمارة صليبية – أرمنية منذ البداية؛ فهم على الرغم من قلة عددهم، كان الأرمن أكثر السكان حيوية – خاصة في المجال العسكري مع اختلافهم عقدياً مع بقية السكان؛ حيث كانت السيطرة للأرثوذكس على الكاثوليك من خلال احتفاظهم بالمناصب العليا. وأما السكان من السُريان فكانوا مناهضين للجميع أرمن وسلاجقة ومن بعدهم الصليبيين. وقد وجد الصليبيون في الأرمن حليفاً أكثر منه في السُريانيين.

وأما في أنطاكية، فبعد حوالي سنة من استقرار النورمنديين فيها قام حاكمها بوهيموند بطرد البطريرك البيزنطي جون(يوحنا) الرابع وأغلب رجال الدين الإغريق منها. وبالنظر إلى علاقة بوهيموند السيئة مع البيزنطيين فإن ذلك كان أمراً طبيعياً، ولكن بالنسبة للإمبراطور البيزنطي فقد كانت إهانة بالغة لم ينسها أليكسيوس كومنينوس أبداً.

وفي أغسطس(١١٠٠) قام بوهيموند بالتوغل في شمال الأناضول بهدف السطو وتوطيد حدوده فوقع في أسر الأمير الدانشمند، فخلفه تنكريد على حكم أنطاكية الذي واصل اضطهاد العناصر الإغريقية فيها لأنهم كانوا يشكلون القوة الكبرى والأخطر بما يملكون من حقوق مشروعة وغير قابلة للنزاع في المدينة البيزنطية.

وأثناء وجود بوهيموند في سجن غازي كومشتكين حاول الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس إغراء الأخير بمبلغ كبير من المال مقابل تسليمه إياه بضمان عدم رؤية عدوهم المشترك في آسيا الصغرى ولا في سوريا مرة أخرى. ولكن يبدو أن الدانشمند فضل التفاوض مع أسيره مباشرة حيث تم الاتفاق بينهما على أن يدفع بوهيموند ضعف المبلغ (١٣٠,٠٠٠) بيزانتس، فضلاً عن وعده بمساعدته في حربه ضد سلطان قونية قليج أرسلان، والبيزنطيين وجميع أعدائه الآخرين. وبفضل هذا الاتفاق المبني على الجشع و الطمع وخيانة القضية، خرج بوهيموند من سجنه بعد ثلاث سنوات الأمر الذي أثار غضب البيزنطيين وقليج أرسلان الذي لم يلبث أن أعلن الحرب على غازي باعتباره خائنًا للإسلام.

إن غرور بوهيموند وطموحه المبالغ فيه دفعه إلى التصميم على التوغل باتجاه الشرق، أي نحو بغداد و الموصل، وهو ما يُظهر أنانيته وسياسته التوسعية وعدم إكتراثه لما يحدث لمملكة القدس، لذلك انتهز بوهيموند حاكم أنطاكية وبلدوين لوبورغ حاكم الرها في سنة (١١٠٤) الحرب الأهلية التي كانت تدور رحاها بين السلاطين السلاجقة ووضعا خطة تقضي باحتلال مدينة حرّان الحصينة الواقعة إلى الجنوب الشرقي من إمارة الرها وتحت سيادة أمراء الموصل، فضلاً عن أن وجود الصليبيين في بلخ سوف يشكل تهديدًا خطيرًا للأراتقة المجاورين للرها، وفضلاً عن أن حرّان تمثل الباب الذي يؤدي إلى الموصل، ولأن احتلالها كان يعني دق إسفين يفصم بين الإمارات السلجوقية الثلاثة في الأناضول

و العراق و الشام، ويفصل بشكل خاص حلب ودمشق عن مسلمي وسط آسيا.

ولكن لحسن الحظ طغت الأطماع المادية على القادة الصليبيين واختلفوا فيما بينهم حول تقسيم الغنيمة التي لم يمتلكوها بعد. وفشل المخطط وتعرضت القوات الصليبية إلى هزيمة منكرة على يد القوات الإسلامية المكونة من الأراتقةوآتابك الموصل الذين ألقوا بخلافاتهم جانبًا ووحدوا صفهم. وكان من نتائج هذه المعركة وقوع بلدوين لوبورغ في الأسر، وهروب بوهيموند وعودته إلى أنطاكية، وتعرض الرها لمحاولة حصار فاشلة من قبل آتابك الموصل، و القضاء النهائي على أحلام الصليبيين في التوغل نحو الشرق. كما أدت هزيمة حرّان أيضًا إلى زيادة ضغط السلاجقة على أراضي أنطاكية وإلى بداية شعور السكان المحليين من النصارى بالتذمر من جراء سياسة التعسف و التسلط التي كان يمارسها الحكام النورمنديين عليهم .

لقد كانت للهزائم التي لحقت بالصليبيين في عامي (١١٠١) و (١١٠٤) تبعات سياسية و التي على الرغم من وضوحها، لم يتم استغلالها آنذاك من قبل المسلمين نظرًا لاستمرار النزاع و الشقاق بينهم؛ فقد تم القضاء على أسطورة أن الجيش الصليبي لا يقهر وغير قابل للهزيمة. وكرد فعل من السكان المحليين على تعسف الصليبيين في معاملتهم وطغيانهم، قام أهالي أرتح Artah أولاً تم بعد ذلك أهل البستان Albistan من الأرمن بتسليمها إلى السلاجقة.

وعلى الرغم من عدم استغلال المسلمين لتدني قوة الصليبيين وتدهورها في سوريا واستمرارهم في خلافاتهم الداخلية، فإن الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنينوس لم يشأ أن يترك هذه الفرصة تفلت من بين يديه؛ فقام بمساعدة السكان من الإغريق في كيليكيا (قيليقية) على إعادة السيادة البيزنطية على مدن طرسوس، وأدانا Adana وغيرها، كما قام بإعادة احتلال مرفأ اللاذقية أيضًا.

ويرى فريق من المؤرخين في قيام الأمير بوهيموند بتأسيس إمارة في أنطاكية واستئثاره بحكمها أنه أضرَّ بالحركة الصليبية أكثر مما أفادها كما يُعد ذلك خروجًا عن الهدف الأصلي للحركة الذي أقرَّه البابا أوربان الثاني ألا وهو تحرير الأرض المقدسة لصالح العالم النصراني. لأنه بعمله هذا حنث بقسمه الذي حلفه للإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنينوس و المتضمن إعادة المدن والأراضي التي كانت تحت السيادة البيزنطية بعد انتزاعها من المسلمين وعلى رأسها مدينة أنطاكية لما لها من قيمة روحية ودينية كبيرة لدى البيزنطيين وجعل منه عدوًا بدلاً من حليفًا يمكن الاعتماد عليه في وقت الشدة في تقديم المساعدة التي كانوا هم دومًا في حاجة إليها.

الدولة الزنكية

أسسها عماد الدين زنكي في سنة (١١٢٧)، وهي الدولة التي قلبت موازين القوى لصالح المسلمين.

فكر الخليفة المسترشد في أواخر سنة (١١٢٦) أن يفيد من المنازعات الأسرية التي كانت قائمة وقتذاك بين سلاطين السلاجقة ليتخلص من سيطرتهم. وبما أن بغداد تقع من ضمن أملاك السلطان محمود، فإنه أرسل جيشاً جعل على رأسه عماد الدين زنكي. ومن المعروف أن قسيم الدولة آقسنقر- والد زنكي - كان قد حكم حلب منذ سنة (١٠٨٦) بعد أن أقطعها إياه السلطان السلجوقي ملك شاه. وقد ذاع صيت زنكي أثناء الحروب التي اشترك فيها ضد الصليبين. وتمكن زنكي من إنزال الهزيمة بقوات الخليفة في واسط، وألزمه بالإذعان والخضوع للسلطان السلجوقي. لذلك، لما مات البرسقي كان لابد من تعيين أتابك جديد على الموصل؛ فتقرر تنصيب مسعود، الابن الأصغر للسلطان محمود، أميراً على الموصل على أن يكون زنكي أتابك له. وأمضى زنكي ما تبقى من سنة (١١٢٧) في الموصل ينظم ويضع الأسس التي قامت عليها دولته، ثم لم يلبث أن توجه في ربيع سنة (١١٢٨) إلى حلب التي اعتبرها ليست سوى جزء من أملاك البرسقي، فاستقبله أهلها استقبال الفاتحين بعد أن سئموا الفوضى التي عمت مدينتهم فدخلها زنكي في موكب حافل في ٢٨ يونيو سنة (١١٢٨).

قرر زنكي المضي على نهج من سبقوه من أمثال مودود والبرسقي

في الجهاد ضد الصليبين؛ ولكنه لم يشأ أن يقاتلهم إلا بعد أن يتم استعداده. فكان من أوائل الأعمال التي قام بها توقيع هدنة مع جوسلين الأول لمدة سنتين حتى يتفرغ لتوطيد سلطانه في الشام الذي لم تنته سنة (١١٣٠) حتى امتدت سيادة زنكي المطلقة عليه حتى جنوب حمص.

ولم يستطع زنكي الإفادة من الفوضى التي اعترت الصليبين بعد موت بلدوين الثاني وجوسلين الأول سنة (١١٣١)، نظراً لموت السلطان السلجوقي محمود في تلك السنة أيضاً وقيام حرب أهلية بين السلاطين والأمراء السلاجقة، وجد زنكي نفسه طرفاً فيها. ولما انتهت حرب الوراثة السلجوقية في سنة (١١٣٥) صار بوسع زنكي أن يواصل جهاده ضد الصليبين.

❖ زنكي وأتابكية دمشق:

مات تاج المُلك بوري ابن طغتكين في سنة (١١٣٢) فخلفه في الأتابكية ابنه إسماعيل الذي استهل حكمه باسترداد بانياس من أيدي الصليبين، واستعادة بعلبك وحماه من أيدي منافسيه. ولكن سياسة العنف والقسوة التي اتبعها ضد منافسيه ورعاياه والتي لم يسلم منها حتى أخوه، جعلته لم يعد يأمن على نفسه حتى في داره. لذلك لم يتردد في الكتابة إلى زنكي يعرض عليه الدخول في طاعته مقابل أن يسانده في البقاء في الحكم، وإلا فإنه سوف يسعى إلى تسليم دمشق للصليبين. ومع أن زنكي كان آنذاك متورطاً في حرب الوراثة السلجوقية، فإنه لم يكن بوسعه تجاهل هذا العرض. ولكن على ما يبدو أن زنكي تلقى الدعوة بعد فوات الأوان؛ إذ كانت زمرّد خاتون أرملة بوري قد فرغت من

اغتيال ابنها إسماعيل وتنصيب ابنها الأصغر شهاب الدين محمود في الأتابكية الذي رفض عرض زنكي بالإذعان والخضوع.

❖ **تحالف دمشق مع الصليبين سنة (١١٣٩):**

عاد زنكي في سنة (١١٣٨) لمحاولة الاستيلاء على دمشق وذلك عن طريق عرض الزواج من زمرّد خاتون، ولكن معين الدين أنر الذي تولى السلطة في دمشق أفسد على زنكي كافة مخططاته.

قام زنكي في الأيام الأخيرة من سنة (١١٣٩) بالتعسكر بالقرب من دمشق، وعرض على الأتابك الصغير أن يتنازل له عن بعلبك أو حمص، مقابل الحصول على دمشق. ولكن هذا العرض تم رفضه بتأثير من أنر الأمر الذي دفع زنكي إلى التحرك لفرض الحصار على دمشق. وهنا تشير بعض المصادر العربية والغربية إلى أن أنر قرر أنه صار لديه من المبررات الدينية والسياسية ما يجعله يلتمس المساعدة من الصليبين لدفع هذا "العدو الغادر"؛ فغادرت سفارة من دمشق إلى بيت المقدس برئاسة الأمير أسامة بن منقذ.وكان عرض أنر يتضمن أن تدفع دمشق للملكة الصليبية مبلغ عشرين ألف دينار، وأن يعيد لها حصن بانياس بعد أن يتم انتزاعه من المسلمين، مقابل مساندتهم في رد زنكي عن دمشق.

وهكذا فإن التحالف بين الصليبين وأنر أنقذ دمشق من دون أن ينشب القتال. وتمجدّ المصادر الغربية بقاء أنر على العهد ووفائه بالوعد إذ لم يلبث أن أسهم مساهمة فاعلة في الاستيلاء على حصن بانياس وتسليمه للصليبين. كما تأكد التحالف بين الملك فولك الأول وبين أنر بأن بادر الأخير يرافقه أسامة بن منقذ، بزيارة الملك فولك في بلاطه

بعكا "الذي احتفل باستقبالهما وبالغ في إظهار الحفاوة والتودد ليهما". وتم ذلك في أوائل سنة (١١٤٠).

❖البيزنطيون في الشام:

وأما القوة الثانية التي وقفت في طريق زنكي فكانت الدولة البيزنطية؛ إذ لم يلبث الإمبراطور جون (يوحنا) كومنين – بعد أن أتم فتح إقليم قيليقية – أن أرسل سفارة إلى زنكي ليوهمه أن البيزنطيين ليسوا عازمين على مبادرته بالهجوم. ولكن في فبراير من سنة (١١٣٨) – وبمقتضى أوامر من الإمبراطور– قامت السلطات في أنطاكية – فجأة باعتقال كل التجار والمسافرين القادمين من حلب والبلاد الإسلامية المجاورة حتى لا يفشوا ما شاهدوه من التدابير الحربية حين عودتهم إلى أوطانهم.

وفي أوائل أبريل سنة (١١٣٨) اجتازت القوات البيزنطية أنطاكية ودخلت بلاد المسلمين. كان زنكي في تلك الأثناء ينزل بعساكره أمام حماه يحاول طرد حامية دمشق منها عندما أبلغته كشّافته بغارات البيزنطيين على الأراضي الإسلامية ونواياهم التي تهدف إلى الاستيلاء على حلب، فعجّل بإرسال فرقة من العسكر لتعزيز حاميتها. وكان الإمبراطور يوحنا يأمل في مباغتة حلب، لكنه لما وصلها في ٢٠ أبريل وقام بمهاجمتها تبيّن له مناعة أسوارها وجهوزية أهلها للدفاع عنها، فاتجه نحو الجنوب واحتل الأثارب في ٢٢ أبريل (١١٣٨) ومعرة النعمان في ٢٥ أبريل، وكفرطاب في ٢٧ أبريل، وفي ٢٨ أبريل (١١٣٨) وقف وجيشه عند أبواب شيزر.

وكانت شيزر تُحكم من قبل أبى العساكر سلطان من بني منقذ. وبما أنه كان غير خاضع لزنكي، فإن الإمبراطور البيزنطي كان يأمل ألا يهتم زنكي كثيراً بمصير المدينة. وتعد شيزر على قدر كبير من الأهمية من الناحية الاستراتيجية فإذا امتلكها الصليبيون تصير لهم السيطرة على الوادي الأوسط لنهر الأورنت، ويصير من الصعب على زنكي مواصلة التقدم في الشام. وعلى الرغم من شدة الحصار التي تعرضت له شيزر، فإن قوة استحكاماتها وبسالة مدافعيها، وكراهية الصليبين للبيزنطيين كانت من العوامل المهمة التي أدت إلى فشل الحصار وإنقاذ المدينة. إن ما حققته حملة الإمبراطور البيزنطي يوحنا كومينن ضد المسلمين بالشام سنة (١١٣٨) من نتائج باهرة، لم تلبث أن ضاعت؛ ذلك أن زنكي تمكن من استرداد جميع المدن والحصون التي استولى عليها الإمبراطور.

❖سقوط إمارة الرها (١١٤٤):

غمرت الصليبيون الفرحة وشعروا بالارتياح حينما علموا بموت الإمبراطور البيزنطي يوحنا كومنين في أبريل سنة (١١٤٣). ولكنهم في فرحتهم هذه، لم يلحظ الصليبيون أن عدوهم الأكبر - الأتابك زنكي - كان أكثر منهم فرحة وسروراً.

وحدث في سنة (١١٤٣) أن قام ريموند حاكم أنطاكية باحتلال بعض المواقع التابعة لإمارة حلب ما امتد إلى البزاعة، في حين قام جوسلين الثاني كونت الرها، بالزحف نحو الفرات لكي يلتقي به. ولكن الهدنة التي عقدها جوسلين فجأة مع سوار والي حلب دمرت ما

وضعه ريموند من خطط ومشروعات وأدت إلى ازدياد العلاقات بينهما سوءاً.

وكان زنكي يرقب هذه المنازعات عن قرب. فبعد موت الإمبراطور البيزنطي الذي كان يشكل أكثر اعدائه قوة وبأساً، وبعد موت فولك ووجود ملك قاصر على عرش المملكة الصليبية شريك في الحكم مع والدته ميلسيندا، الأمر الذي يجعل هذه المملكة غير مرشحة للقيام بأي مغامرات حربية آنذاك، فضلاً عن ضمان عدم إقدام الدامشقة على القيام بأي عمل ضده إلا بمساعدة الصليبين، رأى زنكي أن الفرصة مواتية للانقضاض على الرها. فبدأ أولاً بمهاجمة ديار بكر التي كان حاكمها الأرتقي قد تحالف مع جوسلين حاكم الرها. ولتعزيز هذا التحالف خرج جوسلين بجيشه باتجاه الفرات في محاولة منه لقطع أسباب الاتصال بين زنكي وحلب. ولكن عيون زنكي بحرّان أبلغته بتحركات جوسلين فانتهز زنكي الفرصة وتوجّه نحو الرها التي وصلها في ٢٨ نوفمبر (١١٤٤).

ولم يستطع جوسلين إنقاذ إمارته وفشلت جميع محاولاته لطلب النجدة من ريموند أمير أنطاكية وأما ميلسيندا ملكة بيت المقدس فقد أرسلت جيشاً وصل بعد فوات الأوان؛ إذ لم تصمد الرها كثيراً أمام زنكي، فسقطت في يده أواخر ديسمبر من السنة نفسها.

وكان لسقوط الرها صدًا كبيرًا في جميع أنحاء العالم الغربي وقد أدى ضياعها إلى إضعاف الروح المعنوية لدى الصليبيين و زيادة خوفهم و إثارة قلقهم. كما أنه كان صدمة كبرى للنصارى في الغرب

الأوروبي الذي أدرك - لأول مرة - أن الأمور في الشرق لم تكن على ما يرام وأن الشرخ الذي أصاب الصرح الذي بنوه هناك عميق، ومن ثم بدأت الدعوة لقيام حملة صليبية جديدة .

وأما بالنسبة للمسلمين فقد جدد سقوط الرها عندهم الأمل بعد أن تحطمت أولى الإمارات التي أقامها الصليبيون في جوف بلادهم، و اقتصر حكمهم على البلاد التي تقع على ساحل البحر المتوسط؛ إذ جرى تطهير الطرق الممتدة من الموصل إلى حلب من العدو؛ وتم اقتلاع الإسفين الذي دقّه الصليبيون بين سلاجقة إيران وسلاجقة الأناضول، وحاز زنكي عن جدارة لقب الملك المنصور.

نورالدين محمود (١١٤٦_١١٧٤):

وتوفى زنكي في يوم ١٤ سبتمبر سنة (١١٤٦) وهو يحاصر قلعة جعبر التي رفض أميرها الاعتراف بسيادة زنكي عليه. ليس من شك في أن أعداء زنكي تلقوا نبأ موته المفاجئ و اختفائه من على مسرح الأحداث بالغبطة و السرور؛ إذ كانوا يأملون في أن ما يعقب – عادة – وفاة الأمراء المسلمين من خلافات أسرية، سوف تؤدي إلى تمزيق مملكته.

وفعلاً انتهز أعداء زنكي الارتباك الذي أُعقب وفاته؛ فقام أنر بإعادة احتلال بعلبك وإكراه أمراء حمص وحماه على إعلان التبعية لدمشق، بينما قام الأراتقة باسترجاع المدن التي سبق أن فقدوها، وفي الوقت نفسه تمكن جوسلين في أكتوبر من دخول الرها بفضل سكانها الوطنيين الذين عمل نور الدين على طردهم بعد أن استعاد الرها في ٢ نوفمبر وإبعادهم إلى المنفى.

أوضحت الأحداث التي تلت موت زنكي أن أعداءه لم يجنوا من وفاته إلا الشيء القليل؛ إذ أدرك أبناؤه أنه من الحكمة عدم الدخول في شجار عائلي لن يجني ثماره سوى الأعداء.

فاجتمع الأخوان واتفقا على اقتسام الإرث؛ فصار لسيف الدين غازي ما كان لزنكي بالعراق من أملاك متخذاً من الموصل مقراً له، بينما صار لنور الدين محمود ما كان لوالده بالشام متخذاً من حلب عاصمة له.

خلف نور الدين والده زنكي في الجهاد ضد الصليبين. وأما سياسته تجاه دمشق فقد اختلفت عن سياسة والده، إذ اتبع سياسة مبنية على التقارب مع أنر واحترام استقلال دمشق لعله يستطيع إنقاذ المدينة وفسخ التحالف القائم بينها وبين المملكة الصليبية، فتم فعلاً تبادل السفارات بينهما، وتزوج نور الدين من ابنة أنر فانعقد التحالف بينهما.

ولم يلبث أن ازداد مركز نور الدين قوة نظراً لما ارتكبته مملكة بيت المقدس من حماقة، فقد حدث في أوائل سنة (١١٤٧) أن خرج على أنر وخلع طاعته، أمير بُصرى وصرخد (صلخد) في إقليم حوران، الذي أعلن استقلاله عن دمشق وذهب إلى بيت المقدس يلتمس المساعدة ويعرض عليهم التنازل عن بُصرى وصرخد إذا أقطعوه حوران. وكان العرض مغرياً، ولكن يترتب على تحقيقه نقض التحالف مع دمشق. ومع ذلك فقد أعمى الطمع الصليبيون؛ إذ كان أغلب سكان حوران من النصارى الأرثوذكس، وبفضل مساعدتهم التي كان الصليبيون يعوّلون عليها سوف يتيسر استغلال إقليم حوران، فضلاً عن السيطرة على هذا الإقليم سوف تجعل دمشق تحت رحمتهم.

وحينما علم أنر بتحرك الجيش الصليبي في مايو سنة (١١٤٧) وعبوره نهر الأردن وزحفه على إقليم حوران، أرسل إلى نور الين يطلب معاونته ومساندته. فرح نور الدين بهذه الفرصة وأسرع في الخروج من حلب وتمكن بمساعدة أنر من دخول بُصرى وصرخد قبل بلوغ الصليبين إليهما. وبذلك أحبطت خطط الصليبين وباءت بالفشل.

ولكن أنر وعلى الرغم من استعادته حوران بفضل مساندة نور

الدين، فإنه أدرك ما صار عليه الأخير من قوة لذلك كان حذراً في التعامل معه وتطلع إلى إعادة التحالف مع الصليبيين. وأما نور الدين فالتزم بالمعاهدة التي عقدها مع أنر، واتجه صوب الشمال ليواصل ما بدأه من انتزاع توابع أنطاكية الواقعة شرقي نهر الأورنت التي لم تتته سنة (١١٤٧) حتى وقعت جُلّها في يديه.

الحملة الصليبية الثانية

لم تصل الأنباء الرسمية التي تفيد بسقوط الرها إلى البلاط البابوي إلا في خريف سنة (١١٤٥). وفي أول ديسمبر سنة (١١٤٥) وجّه البابا يوجين (يوجينيوس) مرسومًا إلى الملك لويس السابع وسائر الأمراء والقادرين على حمل السلاح في المملكة الفرنسية، يحثهم فيه على النهوض لنجدة الشطر الشرقي من العالم النصراني، " ويعدهم بتأمين ممتلكاتهم في الدنيا، وغفران ذنوبهم في الآخرة" .

ويرى بعض المؤرخين أن الغرب كان في حاجة إلى ما حل بالرها من كارثة حتى ينهض من جديد؛ إذ تراءى لأوروبا الغربية – آنذاك – أن الإمارات الصليبية بالشام لم تقم – فيما يبدو – إلا لتؤلف الجناح الأيسر لحملة حربية لقتال المسلمين على امتداد البحر المتوسط، أما الجناح الأيمن فكان إسبانيا التي ما زال بها من الأعمال ما ينبغي على الفارس النصراني أن يؤديه* ومن ثم فهي غير مؤهلة للمشاركة في هذه الحملة .

---

*يُقصد بذلك ما كان يجرى من مشاركة الفرسان الغربيين في الحرب ضد المسلمين في إسبانيا، و المعروفة بحرب الاسترداد.

❖روجر الثاني ملك صقلية :

وأما روجر الثاني فقد شكل مركز الساحة التي تدور عليها المعركة مع المسلمين في تلك الفترة؛ إذ تمكن روجر من توحيد جميع الممتلكات النورمندية في إيطاليا وتُوّج ملكًا في سنة (١١٣٠)، كما أنه أدرك جيدًا ما لمملكته من أهمية استراتيجية، وما تحتله من موقع مثالي يكفل لها الإشراف على البحر المتوسط، ولكنه أدرك أيضًا أنه لابد أن يكون له موضع على الساحل الأفريقي المقابل لجزيرة صقلية حتى يكتمل له التحكم في البحر المتوسط. وقد سنحت الفرصة لروجر بما نشب من المنازعات والمنافسات بين الأُسر الإسلامية الحاكمة في الشمال الأفريقي، والتي زاد من حدتها ما جرى من تدهور سلطة المرابطين في مراكش، وتزعزع سيادة الفاطميين في تونس، هذا فضلاً عن اعتماد المدن الأفريقية على ما تستورده من حبوب من جزيرة صقلية.

ولم تُسفر حملاته الأولى التي قام بها في الفترة الواقعة بين سنتي(١١٢٣)و(١١٢٨) إلا عن استيلائه على جزيرة مالطا، وفي الوقت نفسه تمكن روجر من الحصول على ولاء الحسن أمير المهدية بسبب ما بذله له من مساعدة. واستطاع في سنة (١١٢٩) من الاستيلاء على جزيرة جربة. وقد شجعه ما أحرزه من انتصارات على السفن الإسلامية على مهاجمة المدن الساحلية الأخرى؛ ففي يونيو سنة (١١٤٣) دخلت قواته مدينة طرابلس ولكنها أُكرهت على الخروج منها، ومع ذلك فقد تمكن روجر من الاستيلاء على المدينة من جديد سنة (١١٤٦). وتوطد

مركزه في هذه المرة وأضحت طرابلس نواة لمستعمرة نورمندية في شمال أفريقيا.

ومن هنا يتبيّن أن روجر كان في وضع يؤهله أن يُسهم في الحرب الصليبية الجديدة لولا أنه كان موضع ريبة وشك من قبل الأطراف المشاركة في الحملة الثانية بما فيها البابوية.

وتألفت الحملة الصليبية الثانية بشكل أساسي من جيشين كبيرين؛ أحدهما ألماني بقيادة الملك كونراد الثالث، والآخر فرنسي بقيادة لويس السابع. وتعد هذه الحملة فرنسية المنشأ على الرغم من اشتراك الألمان فيها. وقد تأكدت فرنسيتها حينما التمس البابا يوجين والملك لويس السابع مساعدة القديس برنارد رئيس دير كليرفو في الدعوة إليها لضمان نجاحها، نظراً لما كان يتمتع به برنارد من شهرة وقوة شخصية، وقدرة على الإقناع، وتعصب ديني. فانعقد مجمع في يزيلاي في ٣١ مارس سنة (١١٤٦) حضره جمع غفير من الناس، وقام القديس برنارد فيه بالدور نفسه الذي قام به البابا أوربان الثاني قبل حوالي خمسين سنة في كليرمونت؛ حيث أقنع سامعيه بحمل الصليب والاشتراك في هذه الحرب الصليبية.

وفي الوقت الذي كان ملكا فرنسا وألمانيا يستعدان ويعدّان العدّة للقيام بحملة برية طويلة، كانت حملة جانبية صغيرة تألفت من إنجليز، وجماعات من الفلمنكيينوالفريزيين تتأهب للذهاب بحراً إلى فلسطين. وفي أواخر فصل الربيع سنة (١١٤٧) غادرت السفن إنجلترا، ولكن لسوء الأحوال الجوية جنحت السفن وأُرغمت في أوائل شهر يونيو

على الاحتماء بالساحل البرتغالي عند مصب نهر دورو. وصادف وجودهم وقتذاك استعداد الفونسو هنري لمهاجمة لشبونة الإسلامية. لذلك تم إقناع عناصر الحملة بأنه لا داعي للقيام برحلة طويلة إلى فلسطين لمحاربة المسلمين الذين صاروا في متناول أيديهم؛ إذ ليس بوسعهم الفوز بالجائزة الروحية الكبرى فحسب، بل أيضاً بالثروة والأملاك. فحوصرت المدينة ولم تستسلم إلا في أكتوبر بشرط الإبقاء على حياة سكانها وأمتعتهم، ولكن الصليبين – كما هي عادتهم – نقضوا عهدهم وأجروا مذبحة مروعة في حق المسلمين، ولم يواصل السير من العناصر الصليبية إلى فلسطين إلا القليل. وبذلك يكونوا قد أسهموا في تأسيس مملكة البرتغال، وحققوا بذلك أيضاً للحملة الصليبية الثانية، ما أحرزته من نصر والذي يُعد النصر الوحيد.

ولم تكن هناك وحدة حقيقية بين الجيش الصليبي التي تشكلت منه الحملة الثانية؛ ذلك أن كلاً من كونراد ولويس، سار الواحد منهم مستقلاً عن الآخر، وفي أزمنة مختلفة من سنة (١١٤٧)، حتى يتجنب الملكان ما يمكن أن يقع بين جيوشهما من منازعات، وأخذ كل منهما يتصرف بشكل مستقلٍ عن الآخر، إلى أن بلغا آسيا الصغرى بعد أن صادفا بعض المتاعب والعقبات في الأراضي البيزنطية. وقد تعرضت الجيوش الصليبية في الأناضول إلى هزائم فادحة على أيدي السلاجقة، وحلت بهم الكوارث بسبب ما ارتكبوه من حماقات.

ولما اكتمل وصول جميع الصليبين إلى بيت المقدس تقرر انعقاد مجلس كبير في ٢٤ يونيو (١١٤٨) بمدينة عكا حضره لويس وكونراد

وبلدوين الثالث وأمه الملكة ميلسيندا. وبعد مداولات ومناقشات ليس معروفاً فحواها، استقر رأي المجلس على مهاجمة دمشق. ويقول باركر في هذا الشأن "على أن الهجوم على دمشق يعد مخالفاً لقواعد الأدب واللياقة؛ إذ أن دمشق كانت الحليف الوحيد الذي يستطيع مساعدة الصليبين في وقف تقدم نور الدين. وما صاحب هذه الحملة من الحماقة لا يقل عما اقترنت به من مخالفة الذوق" كما يصفه رانسمان بأنه قرار" اتسم بالحماقة المطلقة، لأن مصالح الصليبين تقضي باستمرار القطيعة والعداء بين دمشق وحلب، وبالحفاظ على الصداقة مع دمشق لأنها الوحيدة التي انفردت عن سائر الممالك الإسلامية بالحرص على الإبقاء على العلاقات الودية مع الصليبين حتى يتم سحق نور الدين، ولأن النتيجة الحتمية لمثل هذا القرار هو أن يرتمي حكام دمشق في أحضان نور الدين كما دلت عليه أحداث السنة السابقة." وأما هانز ماير فيقول "وأما دمشق فقد كانت الهدف الأخير الذي يجدر التفكير به؛ لأن استمرار قيام مملكة بيت المقدس كان معلقاً بالحلف القائم منذ سنة ١١٣٩) مع دمشق ضد حلب. ومما لا شك فيه أن دمشق مكان مقدس بسبب قصة بولص الرسول، لكن التحالف مع حكامها كان مسألة حيوية للقدس لا ينبغي التفريط بها مهما كانت الدوافع مثالية."

ومع ذلك فلم تلبث أن تجمعت الجيوش الصليبية أمام أسوار دمشق وبدأت في مهاجمتها في يوم ٢٤ يوليو سنة (١١٤٨). ولكن حدث في فجر يوم الأربعاء ٢٨ يوليو أي في اليوم الخامس لبداية الحصار أن انسحب الصليبيون وفشلت الحملة.

- **انسحاب الصليبين وفشل الحملة:**

ويمكن تلخيص أسباب فشل الحملة الصليبية الثانية في الآتي:

١- بسالة المدافعين عن المدينة.

٢- الإمدادات التي أخذت تتدفق على دمشق.

٣- ما بذره معين الدين أنر من شقاق بين الصليبين الشرقيين والقادمين الجدد بسبب ما بذله من أموال لبارونات بيت المقدس الأمر الذي أدى إلى اشتداد الحساسية بين الجانبين وتبادل الاتهامات .

٤- ومن أهم أسباب هذا الفشل، ما كان من التباين والاختلاف في العادات والتوجهات بين الصليبين الشرقيين وبين بني عمومتهم القادمين من الغرب.

٥- الخلاف الصريح الذي نشب بين بارونات بيت المقدس وقادة الحملة الصليبية حول مستقبل دمشق وتبعيتها؛ أي قيام النزاع حول تقسيم الغنيمة من قبل الفوز بالغنيمة ذاتها .

٦- القلق الذي ساد الأوساط الصليبية من إمكانية وصول الجيش الزنكي إلى ساحة المعركة؛ إذ أن ذلك لا يعني أن يحل الدمار بكل الجيش الصليبي فحسب، ولكن يصير من المؤكد انتقال دمشق إلى حوزة نورالدين .

نتائج الحملة الصليبية الثانية :

ويمكن حصر النتائج التي ترتبت على تلك الحملة في الآتي :

١- أنها أدت إلى توتر العلاقات بين البيزنطيين و النصارى الغربيين إلى درجة كادت تصل إلى القطيعة بينهم .

٢- أنها زرعت الشكوك بين الصليبيين القادمين حديثًا من الغرب وبين الصليبيين المقيمين في الشرق .

٣- أنها أوقعت العداوة بين القيادات الصليبية الغربية .

٤- أنها أدت إلى تضعضع موقف الصليبيين، وإلى هبوط معنوياتهم وتدني روحهم القتالية .

٥- أنها حملت في طياتها بذور الحملة الصليبية الرابعة .

السباق بين نور الدين وأمالريك من أجل الاستيلاء على مصر

كانت مصر هدفا لأطماع الصليبين منذ عهد غودفري دي بويون وبلدوين الأول وذلك بسبب موقعها الاستراتيجي، ولما كانت تتمتع به من الموارد الطبيعية الوفيرة، وهو ما افتقرت إليه فلسطين خاصة بعد الاستيلاء على عسقلان.

مات بلدوين الثالث في ١٠ فبراير سنة (١١٦٣) فخلفه أخوه الأصغر أمالريك أو عموري الأول على عرش مملكة بيت المقدس. ويُعد الاستيلاء على مصر من أولويات سياسة أمالريك الخارجية؛ التي يبدو أن السيطرة على عسقلان – الواقعة على الحدود المصرية – كان جزءاً من مخطط صليبي أكبر يهدف إلى احتلال مصر ومنعها من الوقوع في يد نور الدين محمود الذي ازدادت قوته كثيراً بعد أن حاز دمشق سنة (١١٥٤) الأمر الذي جعله يلتفت إلى منازلة الصليبين ويسعي إلى توحيد الشام ومصر. ومن هنا جاء التنافس بينه وبين أمالريك على امتلاك مصر.

بلغت الأوضاع السياسية في مصر– في الفترة التي نحن بصددها – درجة كبيرة من الفوضى؛ إذ لم يكن الحكام الفاطميون وقتذاك إلا ألعوبة في أيدي الوزراء المتنافسين على الحكم، وشبح هزيل يلوّح به هؤلاء الوزراء للشعب لاكتساب الشرعية لحكمهم.

وفي أغسطس من سنة (١١٦٣) بلغ الصراع أشدّه بين اثنين من المتنافسين على الوزارة هما ضرغام وشاور السعدي. وتمكن ضرغام من طرد شاور. ولكي يوطد سلطانه أمر ضرغام بإعدام كل من يخشى نفوذه، الأمر الذي أدى إلى فقدان الجيش لأغلب قادته الكبار.

ولم يلبث شاور أن ظهر فجأة في بلاط نور الدين وقدّم له عرضاً ينطوي على أن يقوم نور الدين بإرسال جيش لإعادته إلى الحكم في القاهرة مقابل: أن يدفع شاور نفقات الحملة، وأن يتنازل لنور الدين عن المناطق الواقعة على الحدود، وأن يعترف بسيادة نور الدين، وأن يدفع له جزية سنوية قدرها ثلث خراج مصر. فتردد نور الدين في قبول العرض نظراً لبُعد المسافة التي تفصل الشام عن مصر، ولما كان يخشاه من المخاطر التي قد يتعرض لها جيشه على امتداد الطريق الذي يسيطر عليها الصليبيون فيما وراء الأردن. ولكن هذا التردد تبدد على إثر محاولة أمالريك غزو مصر في سبتمبر سنة (١١٦٣) بسبب اختلافه مع ضرغام حول تسديد الديون المطلوبة منه حسب اتفاق سنة (١١٦٠).

ولم يُقدم نور الدين على هذه الخطوة إلا في أبريل سنة (١١٦٤) حينما أمر قائده أسد الدين شيركوه أن يسير على رأس جيش كثيف يصحبه شاور وصلاح الدين ابن أخيه نجم الدين أيوب. ولم ينقض شهر

مايو إلا وكان شاور قد رجع إلى الوزارة في القاهرة ومات ضرغام. ولكن شاور لم يلبث أن نقض عهده بعد أن عاد إلى الحكم، وطلب إلى شيركوه مغادرة مصر.

ويبدو أن أهم نتيجة ترتبت على الحملة السورية الأولى هي اكتشاف شيركوه لمدى الضعف الذي آل إليه حكم الفاطميين ومدى هشاشته، والحالة الصعبة التي يعيشها المصريون بسبب ما كان يجري من صراع بين الوزراء، وأن الظروف مُهيأة للسيطرة على مصر؛ لذلك ظل شيركوه يُلح على سيده نور الدين حتى حصل منه في نهاية سنة (١١٦٦) على إذن بالتوجّه مرة أخرى لغزو مصر. وفي يناير سنة (١١٦٧) خرج شيركوه من دمشق، يصحبه صلاح الدين، وهو ينوي الاستيلاء على مصر. وعندما علم شاور بذلك، لم يتردد في طلب النجدة من أمالريك للمرة الثانية مقابل التزامه بدفع مبلغ ٤٠٠.٠٠٠ ألف دينار، يقوم بدفع نصفها فوراً، شريطة أن يتعهد أمالريك بألا يغادر مصر إلا بعد طرد شيركوه منها. واشترط الملك الصليبي، هذه المرة، أن يقوم الخليفة الفاطمي باعتماد هذه الاتفاقية شخصياً.

ولكن الفشل كان من نصيب هذه الحملة أيضاً الأمر الذي دفع شيركوه إلى الرجوع إلى سوريا في أغسطس (١١٦٧).

وأما شاور فكان عليه توقيع اتفاق مع أمالريك يُلزم نفسه بمقتضاه أن يؤدي إتاوة سنوية قدرها مائة ألف قطعة من الذهب، وأن يبقى بالقاهرة مندوباً سامياً من الصليبين، وان تظل بالقاهرة حامية صليبية صغيرة تتولى حراسة أبواب المدينة. عندها فقط غادر أمالريك

مصر.

تحالف الصليبين مع البيزنطيين للاستيلاءعلى مصر سنة (١١٦٨):

جرت في النصف الثاني من سنة (١١٦٨) مباحثات بين الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين وملك بيت المقدس أمالريك بناءً على اقتراح تقدم به الأخير يقضي باحتلال مصر. وأسفرت المباحثات عن إبرام معاهدة يتم بموجبها اقتسام كل ما يجري الحصول عليه من غنيمة في مصر. وكان ذلك في خريف العام نفسه.

وعلى الرغم من هذا الاتفاق، فإن أمالريك تعرض لضغوطات شديدة من قبل باروناته للتعجيل بغزو مصر وعدم انتظار مساعدة الإمبراطور البيزنطي، وذلك للأسباب التالية:

١- ورود أنباء من مصر تؤكد تزعزع حكم شاور، فضلاً عن قلة ثقة الصليبين به.

٢- تأخره في دفع الجزية المطلوبة منه.

٣- تردد بعض الشائعات حول قيام ابنه بالتفاوض مع شيركوه، وأنه طلب الزواج من أخت صلاح الدين.

٤- رأى فرسان طائفة الاسبتّارية وأعوانهم من المتشددين أنه من غير الضروري إشراك البيزنطيين في الغنائم.

لذلك تقرر وضع خطة تقضي بتوجيه الحملة في أكتوبر (١١٦٨) . ولكي يصرف انتباه نور الدين ويمنعه من التحرك، أشاع أمالريك أنه سوف يهاجم حمص. وفي ٢٠ أكتوبر خرج الجيش الصليبي من عسقلان

فبلغ بلبيس بعد عشرة أيام، وهناك ارتاع شاور؛ إذ لم يتوقع مطلقاً أن يُقدم أمالريك على نقض الاتفاق المعقود بينهما. واستولى الجيش الصليبي على بلبيس، ثم تقدم بعد ذلك باتجاه القاهرة فقام شاور بإشعال النيران في الفسطاط بعد أن تبيّن له صعوبة الحفاظ عليها، وأرسل إلى أمالريك يحذره بأنه سوف يسوِّي مدينة القاهرة بالأرض بكل كنوزها ولن يتركها تقع في أيديهم. فقبل أمالريك المساومة مقابل مغادرة البلاد، وتلكأ شاور بعض الوقت، ثم أخذ يساوم على المبلغ الذي بوسعه أن يدفعه. وفي أثناء ذلك وردت الأنباء فجأة بأن شيركوه في طريقه إلى مصر بناءً على طلب من الخليفة.

شيركوه يستولي على مصر سنة (١١٦٩):

لم يشأ شاور أن يتخذ هذه الخطوة التي يراها بالغة الخطورة، ولكن المصادر تشير إلى أن ابنه الكامل أجبر الخليفة العاضد على أن يكتب إلى نور الدين يطلب منه النجدة لإنقاذ البلاد ويعرض عليه ثلثها وكذلك إقطاعات لقادته.

ولم يتردد نور الدين هذه المرة في تجهيز شيركوه بحملة عسكرية كبرى يرافقه فيها ابن أخيه صلاح الدين. تحرك أمالريك – بعد سماعه بقدوم شيركوه – نحو برزخ السويس على أمل الانقضاض على شيركوه بعد خروجه من الصحراء، ولكن شيركوه تجاوزه بعد أن سلك الطريق الجنوبي، فلم يُعد أمام الصليبيين سوى الجلاء عن مصر الذي بدأوا في تنفيذه في ٢ يناير سنة (١١٦٩).

ولم يمض أسبوع حتى دخل شيركوه القاهرة حيث رحب به

العاضد. وأما شاور فقد أظهر التودد لشيركوه في أول الأمر، ولكنه لم يلبث أن عاد إلى سيرته القديمة في المراوغة والخداع حتى أنه سعى إلى تدبير مؤامرة للتخلص من شيركوه وقادته. ولما أحس قادة الجيش السوري – بما فيهم صلاح الدين – بالريبة في سلوك شاور قاموا بإلقاء القبض عليه وتقديمه للعاضد الذي أمر بقطع رأسه. وكان ذلك في ١٨ يناير (١١٦٩)، حيث تم إسناد الوزارة إلى شيركوه التي لم تدم أكثر من شهرين، إذ توفي في مارس (١١٦٩)، فوقع اختيار الخليفة العاضد على يوسف صلاح الدين ابن نجم الدين الأيوبي ليخلف عمه في الوزارة ليبدأ بذلك عهد جديد في توحيد القوى الإسلامية بالشام ومصر، والتصدي للوجود الصليبي في الشرق.

عصر صلاح الدين الأيوبي

توفى شيركوه في مارس سنة (١١٦٩) فقام الخليفة العاضد بإسناد الوزارة إلى صلاح الدين، وذلك بناءً على توصية المقربين إليه. وباعتباره أصغر القادة السوريين سناً، فإن هؤلاء ظنوا أنه أضعفهم أيضًا؛ لذلك فمن الممكن السيطرة عليه، ثم التخلص منه فيما بعد، بعد أن يكونوا قد قضوا حاجتهم به. ولكنهم سرعان ما اكتشفوا أن اختيارهم لم يكن في محله؛ إذ تبيَّن لهم أنه يمتلك – رغم صغر سنه – شخصية فذة وطموحات بعيدة المدى وعود صلب لا يلين. فبدأوا يحيكون له المؤامرات.

❖توطيد مركزه في مصر :

وجد صلاح الدين نفسه في وضع صعب للغاية؛ فهو تابع لنور الدين بحكم منصبه العسكري، بينما هو مسؤول في الوقت نفسه أمام الخليفة الفاطمي الذي كلّفه بالوزارة، هذا فضلاً عن طموحاته الشخصية – التي لم يلبث أن أظهرها بعد توليه الوزارة مباشرة – في تأسيس دولة يكون هو على رأسها. أضف إلى ذلك الفوارق المذهبية؛ فهؤلاء الفاطميون يتبَعون المذهب الشيعي، بينما نورالدين سنّي ويدعو للخليفة العباسي في بغداد .

والوضع كذلك، ارتأى صلاح الدين أن أول خطوة يجب القيام بها هي :-

١- تفتيت الجيش المصري، وفي الوقت ذاته بناء جيش قوي يستطيع الاعتماد عليه في مواجهة خصومه في الداخل ومحاربة أعدائه في الخارج .

٢- كسب ود المصريين وإضعاف موقف الخليفة وأنصاره؛ وذلك عن طريق بذل الأموال التي كان قد جمعها عمه شيركوه .

٣- إخضاع مماليك شيركوه والسيطرة التامة على الجند .

٤- القضاء على الجند السودان الذين كانوا آخر سلاح لجأ إليه العاضد .

❖الحملة البيزنطية الصليبية المشتركة سنة (١١٦٩) :

لقد أدرك الصليبيون ما كان لفوز شيركوه بمصر من أهمية في مصيرهم؛ لذلك لم يتوان أمالريك في إرسال المبعوثين إلى البابوية وإلى حكام أوربا يستنجد بهم ويدعوهم إلى القيام بحملة صليبية جديدة. ولكن جهوده كلها باءت بالفشل. وأما السفارة التي أرسلها إلى القسطنطينية فقد صادفت حظًا أوفر من النجاح؛ إذ كان مانويل كومنين شديد الإدراك لما حدث من انقلاب خطير في توازن القوى بالشرق بعد فقدان مصر؛ لذلك لم يتردد في الموافقة على اشتراك الأسطول البيزنطي في الحملة المزمع قيامها. وقد فرح أمالريك كثيرًا بهذا العرض لأنه – على ما يبدو – لم يفقد الأمل بعد في الاستيلاء على مصر، خاصة وأن نورالدين كان آنذاك منشغلاً في أمور الشمال المتعلقة بمشاكل الإرث في ديار بكر .

واصل أمالريك إلحاحه على الإمبراطور البيزنطي بأن يسرع في مساندته، وفي ١٥ يوليو (١١٦٩) غادر أسطول إمبراطوري ضخم مياه

الدردنيل ولم يصل عكا إلا في أواخر سبتمبر. وفي منتصف أكتوبر استأنفت الحملة سيرها إلى مصر، وفرضوا الحصار على دمياط التي قامت حاميتها بإلقاء سلسلة ضخمة عبر النهر لتمنع السفن من المرور، وبذل المدافعون عنها مقاومة عنيفة وأنزلوا خسائر فادحة بالأسطول البيزنطي، هذا فضلاً عن غزارة الأمطار التي هطلت في غير موعدها الأمر الذي جعل من الصعب الاستمرار في الحصار؛ إذ بدا واضحًا فشل الحملة مع بداية ديسمبر (١١٦٩). وفي اليوم الثالث عشر من الشهر نفسه غادرت الحملة المشتركة دمياط تجر أذيال الخيبة عائدة إلى عسقلان.

وقد ردَّ صلاح الدين على عملية دمياط بانتزاع غزة من أيدي الصليبيين في أواخر سنة (١١٧٠)، ثم استولى - قبل نهاية السنة - على أيلة مرفأ الصليبيين على البحر الأحمر، وسار على طول مجرى النيل وتقدم حتى الجزيرة العربية حيث وصل اليمن وأمَّن بذلك سيطرة مصر على البحر الأحمر وعلى الطرق التقليدية نحو شرق آسيا.

وأدى ذلك كله إلى ذيوع صيت صلاح الدين؛ فزاد حب المصريين له كما زادت ثقتهم فيه الأمر الذي كان له بالغ الأهمية في توطيد مركزه في مصر. وفي الوقت نفسه يُعد ذلك من النتائج المهمة المباشرة التي ترتبت على فشل الحملة. وأما النتيجة المهمة الأخرى، فقد تمثلت في تغير فعَّاليات المواجهة بين الصليبيين والمسلمين؛ إذ تحوَّل موقف المملكة الصليبية من وضع الهجوم إلى وضع الدفاع؛ ذلك أنهم أضحوا يشعرون يومًا بعد آخر بزيادة تضييق الخناق عليهم، وأنهم صاروا مُكرهين على

توزيع جهودهم لصد الخطر المحدق بهم من الشمال و الجنوب بعد أن كانت فعّالياتهم مُسخرة ضد نورالدين في الشمال فقط .

❖إلغاء الخلافة الفاطمية :

من المعروف أن نورالدين محمود كان سنّياً متديناً ، وأن علاقته بالخليفة العباسي في بغداد قد ازدادت قوة بعد فرض سيادته على الموصل في بداية سنة (١١٧١). ولشدة حرصه على سيادة المذهب السنّي أخذ نورالدين يُلح على صلاح الدين – الذي لم يكن أقل تحمسًا للمذهب السنّي، ولكنه كان يخشى نوايا سيده – بضرورة إنهاء الخلافة الفاطمية والدعوة للخليفة العباسي المستضيء بجميع مساجد مصر. وبعد تردد ، قام صلاح الدين باتخاذ الخطوة الأخيرة في انقلاب لم تُرق فيه قطرة دم واحدة؛ إذ تم في أول جمعة من شهر المحرّم سنة (٥٦٧هـ / سبتمبر ١١٧١) استبدال اسم العاضد الفاطمي باسم المستضيء العباسي في الخطبة.

وهكذا انتهت الخلافة الشيعية في مصر، وصار يُخطب بمساجد القاهرة لخليفة بغداد ، واتحد المسلمون، بعد أن طال الشقاق بينهم لمواجهة الصليبيين. ومع ذلك فقد ظلت مملكة بيت المقدس في الست عشرة سنة التالية بنجوة من الخطر ولم تُنتقص ممتلكاتها؛ لأنه على الرغم من أنه تم – من الناحية الدينية – توحيد مصر والشام، فإن الاختلاف السياسي مازال قائمًا. وطالما ظل هذا الاختلاف، اطمأن الصليبيون على سلامتهم .

وعلى العموم، فقد توقفت فعّاليات كل من نورالدين وصلاح الدين – بسبب الوحشة التي وقعت بينهما – حتى مايو سنة (١١٧٤) حين فاجأ الموت نورالدين، فخلا الجو لصلاح الدين الذي صار باستطاعته التحرك في الميدان دون منافس وبحرّية تامة لكي يوّحد مصر والشام سياسيًا بعد أن توحدتا دينيًا .

❖مؤامرة الشيعة سنة (١١٧٤) :

تعرض صلاح الدين إلى العديد من المؤامرات التي دبرها الشيعة والعناصر المعارضة منذ توليه الوزارة. وكانت أولاها تلك التي تم اكتشافها والقضاء عليها في مهدها في يوليو سنة (١١٦٩). وأما أخطرها فكانت المؤامرة التي دبرها الشيعة بالتعاون مع الباطنية وحكومتي بيت المقدس وصقلية. ولكن المؤامرة فشلت بعد أن انكشف أمرها وإعدام المشتركين فيها بما فيهم عناصر من الباطنية المكلفين باغتيال صلاح الدين. وأما أمالريك فمات في يوليو (١١٧٤) ولم يحقق حلمه في الاستحواذ على مصر، وبذلك لم يعدُ ثمة ما يخشاه صلاح الدين من خطر لغزو البلاد براً. وأما الأسطول الصقلي فقد فشل في مهمته وبخاصة بعد أن تبيّن أنه أضحى محروماً، من المساعدة المحلية والصليبية التي كان يعلق عليها أهمية كبرى.

صلاح الدين والشام:

خلف نور الدين على الحكم ابنه الملك الصالح إسماعيل، وهو صبي لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره، وكان وقتذاك بدمشق فانتزع ابن المقدّم الوصاية عليه بعد موافقة والدته. ولكن كمشتكين أمير

حلب نازع ابن المقدّم الوصاية على الملك الصغير معتبراً نفسه أحق بالوصاية على إرث نور الدين. وازداد خوف ابن المقدّم على إمارته خاصة حينما هرب الصالح إسماعيل مع أمه إلى حلب، فصار في رعاية أميرها كمشتكين، الذي بادر بمحاولة إخضاع دمشق: وهو أمر دفع ابن المقدّم إلى أن يلجأ إلى الاستنجاد بأمير الموصل سيف الدين غازي (إبلغازى) الذي تلكأ وآثر توطيد ملكه في الجزيرة الفراتية. وتحت ضغط أهل دمشق وإلحاحهم وجّه ابن المقدم الدعوة إلى صلاح الدين لنجدته. فبادر صلاح الدين بالخروج من مصر، فبلغ دمشق في ٢٦ نوفمبر سنة (١١٧٤) التي فتحت له أبوابها، وفرح به أهلها، فعيّن أخاه سيف الإسلام طغتكين واليا يحكمها بسم الملك الصالح.

أصبح ريموند الثالث كونت طرابلس – بعد موت أمالريك– هو الوصي على ملك بيت المقدس القاصر. وكان أول ما ألزم به ريموند نفسه من واجبات – باعتباره وصيا على العرش – هو أن يحدّ من نموّ قوة صلاح الدين. ذلك أنه إذا لم يعُد بمقدور الصليبيين منع ما حدث من اتحاد بين القاهرة ودمشق، فإن الفرصة مازالت أمامهم لسد الطريق أمام صلاح الدين ومنع قيام دولة إسلامية كبرى تمتد من النيل إلى الفرات، وذلك عن طريق دعم استقلال حلب التي ظلت – حتى ذلك الحين –خارج الاتحاد. لذلك حينما شرع صلاح الدين في حصارها في ٣٠ ديسمبر سنة (١١٧٤) أرسل كمشتكين يلتمس النجدة من الباطنية والصليبيين. ولم تمض سوى أيام قليلة حتى تم اكتشاف جماعة من الباطنية بالقرب من خيمة صلاح الدين.

ولكي يحوّلوا انتباه صلاح الدين عن حلب، ظهر ريموند في ٢٥ فبراير سنة (١١٧٥) أمام مدينة حمص وشرع في مهاجمتها الأمر الذي جعل صلاح الدين يُسرع نحو الجنوب لنجدتها، وبذلك يكون الهجوم قد حقق النتيجة المرغوبة. وأما ريموند فترك حصار المدينة ولم ينتظر وصول صلاح الدين، الذي لم يحل شهر أبريل سنة (١١٧٥) إلا وكان قد بسط نفوذه على كل سوريا حتى حماه شمالاً، بينما ظلت حلب خارج سيادته. وتعبيراً عن امتنانه لريموند الثالث، قام كمشتكين بإطلاق سراح رينالد شاتيون، وجوسلين كورتيناي وجميع الأسرى الصليبيين.

وشعر صلاح الدين بأن الزنكيين في حلب والموصل صاروا يشكلّون تهديداً للدولة الإسلامية الكبرى التي كان يسعى لتأسيسها، فقرر إخضاعهم؛ لأنه من دون إخضاعهم لن يكون بمقدوره التفكير في معركة حاسمة مع الصليبيين. لذلك عرض أن يتنازل لهم عن حمص وحماه، ولكن العرض لم يحظ بالقبول، فجرت معركة في شهر أبريل سنة (١١٧٥) في موضع إلى الشمال من حماه كان النصر فيها إلى جانب صلاح الدين، وترتبت عليها نتائج مهمة وبعيدة المدى هي:

١- تخلى صلاح الدين عن تبعيته للملك الصالح إسماعيل؛ إذ سبق وأن أعلن أنه يبذل كل ما في وسعه من جهد ليخلص في خدمته ويحافظ له على إرثه. ولكن الصالح رفض ما عرضه صلاح الدين من مساعدة وآثر عليه غيره.

٢- اتخاذ لقب ملك مصر والشام، وسك النقود باسمهوحده.

٣- موافقة الخليفة العباسي على الوضع الجديد وإقراره.

ومن ثم فإن أبريل سنة (١١٧٥) يُعد التاريخ الفعلي لقيام الدولة الأيوبية. وفي سبتمبر سنة (١١٧٦) تعرض جيش الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين إلى هزيمة ساحقة على يد السلاجقة في معركة ميريوكيفالوم، التي تعدل في أهميتها الكارثة التي نزلت بالبيزنطيين قبل مائة عام في مانزيكرت؛ إذ تحطمت فيها فجأة القوة الحربية الضخمة التي بناها جده وأبوه، وخسرت بمقتضاها بيزنطة الأناضول للسلاجقة، وتم القضاء بشكل نهائي على الوجود البيزنطي في قيليقية والشام، وأنهت نظام التوازن الذي أوجده مانويل والذي منع نور الدين في أوج قوته من الإمعان في الضغط على الصليبيين؛ أي حرمت الصليبيين من حاميتهم الرئيسة في الشرق، ومن ثم، فإن كارثة ميريوكيفالوم تُعد فاجعة كبرى للبيزنطيين كما هي للصليبيين.

وفي أثناء الفترة من (١١٧٦ وحتى ١١٨٣) لم يوقف صلاح الدين حروبه ضد الصليبيين – على الرغم من الهدنات التي كانت تتخللها – ولكنه وجّه طاقته وإمكاناته بشكل رئيس ضد المنشقين من الحكام المسلمين وفي مقدمتهم أمراء حلب والموصل من أجل توحيد العالم الإسلامي والاستعداد للمعركة الكبرى.

وفي ١٢ يونيو سنة (١١٨٣) صارت حلب في حوزته، وفي أواخر أغسطس عاد صلاح الدين إلى دمشق التي اتخذها حاضرة له. وهكذا أصبحت إمبراطوريته تمتد من برقة إلى نهر دجلة، ومن جبال طوروس شمالاً حتى بلاد النوبة جنوباً، وأضحى له من القوة ما لم تتوفر لأي حاكم مسلم لأكثر من قرنين من الزمان؛ فقد ارتكن إلى ثروة مصر،

وخضعت لحكمه المباشر المدينتان الكبيرتان دمشق وحلب، وأحاط بهما، وامتد باتجاه الشمال الشرقي حتى أسوار الموصل – التي غدا صاحبها يخشاه ويرهب جانبه –، الإقطاعات الحربية التي دخلت في طاعته منذ سنة (١١٨٢) مثل حرّان، ونصيبين، وحصن كيفا، والرها، وسروج، والتي ارتكن صلاح الدين إلى مساندة أربابها. وهذا فضلاً عن أن الخليفة العباسي يؤيده، وسلطان السلاجقة بآسيا الصغرى يسعى لمصادقته وكسب وده، وأن الإمبراطورية البيزنطية لم تعد تشكل أي خطرا عليه. إذن لم يتّبق له سوى أن يقهر الدخلاء الذين دنّسوا الديار الإسلامية، وأضحوا وصمة عار في جبين المسلمين بامتلاكهم فلسطين وساحل الشام.

❖تعقيب:

لقد تبنى صلاح الدين برنامج نور الدين السياسي المتمثل في توحيد القوى الإسلامية في الشرق الأدنى من خلال دعم وتطوير فكرة الجهاد ضد الصليبيين، التي صاحبها صراع داخلي قاده السنّة ضد المنشقين من الشيعة. كما أن آلة الدعاية التي كانت قوية في ظل نور الدين، شهدت توسعاً في عهد صلاح الدين؛ لأنه كان يدرك أن نجاحه وفشله متعلقان –إلى حد كبير– برصيده المعنوي الذي يتمتع به في العالم الإسلامي.

إذن حان الوقت لكي يرد المسلمون على ما نشب من الحروب الصليبية بالجهاد الديني. فعلى الرغم من أن صلاح الدين أمضى سنوات عديدة امتدت من سنة (١١٧٤وحتى ١١٨٣) في سبيل الاستحواذ على

أملاك نور الدين وتوحيد العالم الإسلامي، وأنه عقد معهم الهدنة بعد الأخرى، فإنه لا يوجد شك في أن هدفه الأخير كان الجهاد الديني واسترداد بيت المقدس؛ وما الاستيلاء على حلب سوى خطوة على ذلك الدرب تزيد من اقتراب تحقيق الهدف الأسمى المتمثل في تحرير المسجد الأقصى الذي أسرى الله بعبده إليه ليلاً.

وهكذا تغيّر المدّ: فأضحى الصليبيون في وضع الدفاع والمسلمون في وضع الهجوم بعد أن تحققت وحدتهم، في حين دبت الفرقة والخلاف بين الصليبيين وفتر حماسهم، فاعتراهم الوهن في الوقت الذي اشتد فيه حماس المسلمين بعد أن توحدوا فنهضوا لاستئصال الورم الذي نبت في قلب وطنهم وشتت شملهم لسنوات عديدة.

معركة حطين واسترداد بيت المقدس (١١٨٧) :

قام ريموند الثالث – الوصي على عرش المملكة الصليبية – في سنة (١١٨٥) بتقديم التماس إلى صلاح الدين يطلب فيه الموافقة على عقد هدنة لمدة أربع سنوات. وبالفعل تم عقد معاهدة بين صلاح الدين ومملكة بيت المقدس تقرر بموجبها استئناف التجارة بين الإمارات الصليبية المختلفة وجاراتها، وتؤكد المصادر أن ما تدفق من القمح من الشرق أنقذ الصليبيين من الهلاك جوعاً.

ويُعد رينالد شاتيون[1] وسلوكه المتهور من الأسباب الرئيسة التي عجّلت بمعركة حطين؛ ذلك أن رينالد بعد أن تم إطلاق سراحه في سنة

---

[1] مغامر فرنسي ذاع صيته في أنطاكية، ووقع في أسر المسلمين من سنة (١١٥٩) إلى سنة (١١٧٦)، ويُعرف في المصادر العربية باسم أرناط.

(١١٧٦) تزوج من أميرة أنطاكية كونستانز، وحصل على حصن الكرك الذي يقع إلى الجنوب الشرقي من البحر الميّت. ومن هذا الحصن ذي الموقع الاستراتيجي الممتاز، شرع رينالد في شن الغارات المخرّبة. فانشأ أسطولاً ونزل به البحر الأحمر في محاولة للهجوم على المدينة المنوّرة ومكة المكرمة وكان ذلك في سنة (١١٨٢). وإذ لقي رينالد الهزيمة في البحر الأحمر على يد أحد قادة صلاح الدين، تحوّل من النهب والغارة إلى قطع الطريق واللصوصية، وبدأ يعترض القوافل التي تسلك الطريق من دمشق إلى مصر، وتمر قريباً من إمارته. وفي سنة (١١٨٦) هاجم رينالد قافلة كبيرة كانت بها أخت صلاح الدين، فانتهك بذلك الهدنة الموّقعة بين صلاح الدين وريموند.

ولحرص صلاح الدين على احترام المعاهدة أرسل إلى رينالد يطلب إليه إطلاق الأسرى، وتعويضهم عن خسائرهم، ولكن رينالد رفض مجرد استقبال السفارة التي اتجهت إلى بيت المقدس حيث رفعوا شكواهم إلى ملكها چاي أو غي Guy الذي أمر رينالد أن يطلق سراح الأسرى ويدفع التعويضات ولكن الأخير رفض.

وأمام هذا التعنت لم يكن أمام صلاح الدين سوى شن حرب شاملة ضد الصليبين. وفي اليوم الرابع من يوليو سنة (١١٨٧) جرت معركة عنيفة في حطين انتصر فيها المسلمون انتصاراً باهراً حاز فيها صلاح الدين كثيراً من الغنائم ووقع في أسره كبار قادة الصليبين من بينهم ملك بيت المقدس ورينالد الذي قتله صلاح الدين بيده براً بقسمه.

ولم يبق أمام صلاح الدين بعد أن دمّر أعداءه، سوى أن يسترد

مدن وحصون المملكة الصليبية التي أخذت تسقط في يده تباعاً باستثناء مدينة صور التي اشتهرت بضخامة حاميتها ومناعة أسوارها. وفي يوم ٢ أكتوبر سنة (١١٨٧) استسلمت مدينة القدس لصلاح الدين بعد حصار لم يتجاوز الاسبوعين، ودخلها ظافراً بعد أن أمّن السكان على أرواحهم وأموالهم. ووفق وثيقة التسليم تقرر أن يفتدي كل نصراني نفسه على أساس عشرة دنانير للرجل وخمسة دنانير للمرأة، ودينارا للطفل.

وفي هذا الشأن، يصح أن نقتبس سطور قالها المؤرخ الإنجليزي الشهير ستيفن رنسمان "... والواقع أن المسلمين الظافرين اشتهروا بالاستقامة والإنسانية فبينما كان النصارى منذ ثمانٍ وثمانين سنة يخضون في دماء ضحاياهم، لم تتعرض الآن دار من الدور للنهب، ولم يحل بأحد من الأشخاص مكروه. فقد صار رجال الشرطة – بناءً على أوامر صلاح الدين– يطوفون بالشوارع والأزقة يمنعون كل اعتداء يقع على النصارى."

وفي يوم الجمعة ٩ أكتوبر أدى صلاح الدين مع جمهور المصلين صلاة الجمعة بالمسجد الأقصى، وأعربوا عن شكرهم وامتنانهم لله سبحانه وتعالى. وباسترداد بيت المقدس يكون صلاح الدين قد حقق أهم واجب عليه نحو دينه.

وأما موقف الإمبراطورية البيزنطية: فما أن بلغت أنباء انتصار صلاح الدين إلى القسطنطينية حتى بادر الإمبراطور إسحاق أنجيلوس بإرسال سفارة إلى صلاح الدين لتهنئته ولتطلب منه السماح بتبعية الأماكن المقدسة النصرانية إلى الكنيسة الأرثوذكسية، فأجابه صلاح

الدين إلى ذلك الطلب.

وأما الحصون الاستراتيجية المتمثلة في حصني الكرك والشوبك الواقعة في إقليم شرقي الأردن، فلم يتم إخضاعها إلا في نهاية سنة (١١٨٨) وبداية (١١٨٩) على التوالي.

الحملة الصليبية الثالثة

وقعت معركة حطين في الرابع من يوليو سنة (١١٨٧)، وانتصر فيها المسلمون بقيادة صلاح الدين الأيوبي، وفي الثاني من أكتوبر من السنة ذاتها استسلمت له بيت المقدس ودخلها ظافراً.

إن هزيمة الصليبين في حطين واسترداد القدس من الأسباب الرئيسة التي أدت إلى قيام الحملة الصليبية الثالثة. ذلك أن البابوية ما إن وصلتها الأنباء حتى بادرت بإرسال المناشير إلى سائر أنحاء أوروبا داعية إلى قيام حملة صليبية، وحث الناس على المشاركة فيها وكذلك الدعوة إلى فرض ضريبة خاصة عُرفت باسم "عُشر صلاح الدين the Dime of Saladin".* ولم يلبث أن بدأ الاستعداد لحملة صليبية جديدة. على أن الحملة الصليبية الثالثة اختلفت عن الحملة الأولى، في أنها لم تتبع من البابوية التي لم يتجاوز دورها التحريض نظراً لما كانت تعانيه، وإنما نبعت من السلطة الزمنية، التي تمثلها آنذاك الملكيات القوية الثلاث في ألمانيا وانجلترا وفرنسا.

ففي مارس من سنة (١١٨٨) تم الإعلان في ألمانيا عن قيام حملة

* ضريبة فُرضت على كل الدخول والأموال المنقولة ومقدارها ١٠%، ويقوم بدفعها كل من يتخلف عن حمل الصليب. إذن الهدف من وراء فرضها هو جعل أكبر عدد من الناس يحملون الصليب ويشاركون في الحملة.

صليبية. وقبل ذلك في يناير من السنة نفسها وافق كل من ملك إنجلترا هنري الثاني والملك الفرنسي فيليب الثاني أوغسطس على وضع خلافاتهما جانباً والمشاركة في حملة صليبية لاسترداد القدس من أيدي المسلمين، وإن ما اتخذه هذان العاهلان من تدابير ووسائل لقيام الحملة يزيد في تأكيد طابعها العلماني؛ ذلك أن مشروع فرض ضريبة عُشر صلاح الدين على كل من لم ينهض لحمل الصليب، أدى من جهة إلى الدفع بأعداد كبيرة من الناس إلى المشاركة في الحملة، وصار من جهة أخرى مصدراً مالياً لتمويل العمليات الحربية في المستقبل.

إن الأساس العلماني للحملة الصليبية الثالثة جعلها من أكبر الحملات الصليبية، إذ اشترك فيها – كما أسلفنا الملوك الثلاثة الكبار الذين يحكمون أوروبا – وفي الوقت نفسه كان من عوامل فشلها؛ لأن ملكي إنجلترا وفرنسا نقلا ما بينهما من منازعات وخلافات سياسية إلى الحملة الصليبية بعد أن كانا قد اتفقا على ضرورة تجاوزها بل ونبذها. ومن ثم فإن الحملة الصليبية الثالثة تُعد أقل شأناً من الناحية الروحية إذا ما قورنت بالحملة الأولى. ناقش هذه العبارة؟ على الرغم من أنها تفوقها في الجوانب المادية.

وعلى الرغم من أن مدينة صور غدت بؤرة لتجمّع فلول الصليبيين الناجين من حطين أو الفارين من القدس، فإن مدينة عكا كانت هدف الجميع؛ ذلك أن عكا شكلت آنذاك نقطة الارتكاز، لأنه إذا تم الاستيلاء عليها، صار الطريق إلى بيت المقدس مفتوحاً أمام الغزاة.

فأما الجيش الألماني فقد كان بقيادة الإمبراطور فريدريك الأول

(باربا روسا) الذي غادر ألمانيا في مايو (١١٨٩). ونظراً لما اتصفت به هذه الحملة من مظهر علماني، سعى باربا روسا إلى تمهيد الطريق بما اتبعه من أساليب دبلوماسية، وذلك بإرسال السفارات إلى كل من ملك المجر، والإمبراطور البيزنطي، وسلطان قونية. وفي أواخر مارس (١١٩٠) عبر الجيش الألماني إلى شواطئ آسيا الصغرى، وحينما وصل سهول منطقة قيليقية واستعد أفراده لعبور نهر السالف أو كما يُعرف باسم كاليكادنوسCalycadnus، غرق الإمبراطور، وتفرق جيشه ولم يصل منهم إلى عكا إلا القليل. وحدث ذلك في يوم ١٠ يونيو من سنة (١١٩٠). وهكذا جاء الدور الألماني إلى نهايته.

وأما الجيش الفرنسي فقد كان بقيادة الملك فيليب أوغسطس ووصل عكا المحاصرة في أواخر مارس سنة (١١٩١)، بعد قضائه فصل الشتاء في جزيرة صقلية.

وأما الجيش الإنجليزي فقد بدأ في تجهيزه – على المستويين المادي والعسكري – الملك هنري الثاني الذي لم يُكتب له قيادته، ذلك أنه توفى في يوليو سنة (١١٨٩)، فخلفه ابنه ريتشارد الأول الشهيربقلب الأسد الذي عرّج على جزيرة قبرص وهو في طريقه إلى الأراضي المقدسة فوصلها في مايو (١١٩١) حيث تم له الاستيلاء عليها وانتزاعها من أيدي البيزنطيين.

ويُعد استيلاء ريتشارد على قبرص خطوة على درجة كبيرة من الأهمية ليس في تاريخ الجزيرة أو الحروب الصليبية فحسب، بل في تاريخ الشرق الأدنى بشكل عام؛ لأن الشرق الصليبي الذي كاد صلاح الدين

أن يقضي عليه، كُتب له أن يولد مرة أخرى وأن يظل حيّاً؛ ذلك أن تلك الجزيرة أضحت بعد استيلاء ريتشارد عليها مركزاً دائماً لتموين البقايا الصليبية في الشرق، كما صارت محوراً لكثيرٍ من الحركات الصليبية طيلة قرون مقبلة.

وصل ريتشارد مدينة عكا في يونيو (١١٩١) واستطاع بما جلبه من إمدادات ضخمة أن ينهي الحصار الذي استمر مضروباً عليها لمدة سنتين. ولم تُفلح محاولات صلاح الدين إنقاذها فاستسلمت في الثاني عشر من يوليو. ويُعد سقوط عكا أولى النتائج التي حققتها الحملة الصليبية الثالثة.

❖ صلح الرملة:

مكث ريتشارد في فلسطين سنة أخرى استطاع خلالها أن يسترد حيفا وقيصرية وأن يحرز انتصاراً على القوات الإسلامية في معركة آرسوف. على أن ما هو أهم من كل العداوات – كما يتضح من المصادر– تلك العلاقة التي نمت بين ريتشرد وصلاح الدين بسبب ما وقع بينهما من مفاوضات أثناء تلك السنة حتى بلغ الأمر بريتشارد إلى أن يقترح أن يقوم العادل شقيق صلاح الدين بالزواج من أخته جوانا.

وعلى العموم، فقد انتهت المفاوضات بتوقيع صلح بين الطرفين في ٢ سبتمبر سنة (١١٩٢)، عُرف بصلح الرملة ومدته ثلاث سنوات. ويُعد هذا الصلح من أخطر النتائج التي ترتبت على الحملة الصليبية الثالثة؛ إذ اشتملت بنوده على:

١- اقتسام مدينتي اللّد والرملة.

٢- تبقى المنطقة الساحلية حتى يافا جنوباً في يد الصليبين.

٣- يحتفظ المسلمون بالقدس، على أن يُسمح للنصارى أن يدخلوها متى شاؤوا.

٤- الإبقاء على مدينة عسقلان حيادية.

وفي أكتوبر من سنة (١١٩٢) غادر ريتشرد فلسطين، وفي سنة (١١٩٩) سقط قتيلاً وهو يحارب فليب أوغسطس.

وأما سبب فشل الحملة فتعزوه المصادر الغربية إلى أنه ليس باستطاعة جيش تعددت قياداته، ومزقته المنازعات السياسية، وحارب على أرض أجنبية أن يحقق النصر على جيوش جمع بينها ووحدها الحماس الديني، وانضوت تحت لواء قائد مثل صلاح الدين.

وعلى الرغم من أن الحملة الصليبية الثالثة فشلت في تحقيق هدفها، فإنه ترتب عليها عدة نتائج مهمة:

١- إن المشاكل التي نشبت بين الإمبراطور البيزنطي اسحاق أنجيلوس وبين فريدريك باربا روسا حملت في طياتها جراثيم الحملة الصليبية الرابعة.

٢- كذلك، فإن المفاوضات التي وقعت بين صلاح الدين وريتشرد قلب الأسد انطوت هي الأخرى على بذور الحملة الصليبية السادسة.

٣- ترتب على اشتراك الأمم الأوربية في هذه الحملة أن ازدادت المنافسات القومية، وبرزت الاختلافات الوطنية.

٤- حدث في هذه الحملة من التقارب بين المسلمين والنصارى ما لم يحدث في أي حملة صليبية أخرى.

٥- ولكن أهم ما تمخضت عنه هذه الحملة، ما حدث من أن البابوية، أفلت من يدها زمام الحركة الصليبية التي غدت داخلة في نطاق سياسة الدولة المدنية، فتولت الحكومة تنظيمها على أساس ما وضعته من نظام للضرائب، وصارت الدولة تقوم بتوجيهها وفقاً لما اتخذته من طريق للمفاوضات، وسوف تتخذ الدولة اسم "الحرب الصليبية" لتخفي وراءه ما لها من أغراض وأطماع دنيوية، وسوف تعمل تحت هذا الغطاء لتحقيقها.

وفي يوم الجمعة، ١٩ فبراير من سنة (١١٩٣)، تحامل صلاح الدين على نفسه فركب للقاء الحجاج القادمين من مكة، وفي أول مارس تغيَّب ذهنه، وفي يوم الأربعاء ٣ مارس فارق الحياة وانتقل إلى جوار ربِّه.

الخلاصـــــــة:

تكاد تُجمع المصادر على أن صلاح الدين ارتكب خطأين استراتيجيين ترتب عليهما استمرار التواجد الصليبي في الشرق لمدة تربو عن المائة عام. ويتمثل الأول في عدم تخريب مدينة عكا بعد امتلاكها وفقاً لما اشار به عليه وزراؤه حتى لا تكون محط أنظار الصليبيين. ولكن صلاح الدين لم يلتفت إلى النصيحة، بل على العكس من ذلك نجده يُجري بعض الترميمات على مينائها واسوارها. على أن ذلك لم يمنع من سقوطها في أيدي القوات الصليبية بعد حصار طويل استمر من ٢٨ أغسطس (١١٨٩ حتى ١٢ يوليو سنة ١١٩١)، وقاده غي أوچاي لوزينان، الذي حنث في قسمه الذي حلفه لصلاح الدين بألا يرفع السلاح في وجهه ثانية إذا ما أطلق سراحه. وقد أسهمت جيوش الحملة الصليبية الثالثة

وبخاصة الفرنسية والإنجليزية بصورة فاعلة في زيارة شدة الحصار على المدينة مما أدى إلى استسلامها آخر الأمر. وتشكلت بها حكومة صليبية التي أصبحت تُعرف بالمملكة الصليبية الثانية، والتي استمرت في الوجود حتى سنة (١٢٩١).

وأما الخطأ الاستراتيجي الثاني فهو عدم استيلائه على مدينة صور؛ وهو أمر تأسس عليه صلاح الدين كثيراً فيما بعد، لما ترتب عليه من نتائج وخيمة أضّرت بالمسلمين وأفاد منها الصليبيون وساعدت على استمرار بقائهم في الشرق؛ إذ لو اشتد صلاح الدين في مهاجمة المدينة، بعد أن سقطت عكا في يده، لما وقف سورها حائلاً دون سقوطها هي أيضاً. ولكنه تجاوزها بعد أن فشل أول هجوم وجهّه إليها. فقد حدث في ١٤ يوليو سنة (١١٨٧) – أي بعد عشرة أيام مضت على معركة حطين – أن وصلت سفينة إلى ميناء صور تحمل على متنها كونراد دي مونتيفرات فاراً من القسطنطينية مع جماعة من الفرسان. وقد تمكن كونراد فور دخوله المدينة من أن يجمع حوله فلول الصليبين المتواجدين بالمدينة، وأن ينظم الدفاع عنها. ومن ثم فلما ظهر صلاح الدين مرة أخرى أمامها في نوفمبر سنة (١١٨٧)، تبيّن له ما وقع من ازدياد قوة استحكاماتها، ووصول امدادات بحرية وعسكرية لتعزيز الدفاع عنها. وهكذا رغم كل المحاولات التي بذلها، وجد صلاح الدين نفسه عاجزاً عن اقتحامها الأمر الذي دفعه إلى عقد مجلس حربي أشار فيه الأمراء عليه بأن العساكر في حاجة شديدة إلى الراحة بسبب ما لا قوه من عناء الحرب المتواصلة منذ حطين وما تعرضوا له من مرض. وفي بداية سنة (١١٨٨)

قام صلاح الدين بتسريح نصف جيشه. وهكذا، وبفضل فشل صلاح الدين في الاستيلاء على صور، وبفضل ما أبداه كونراد من صمود في وجه الهجمات المتكررة تم انقاذ المدينة وما تلى ذلك من استمرار التواجد الصليبي.

وأما انجازاته في سنة (١١٨٧) فهي عظيمة على الرغم من أنه تأسس كثيراً فيما بعد لأنه لم يستطيع الاستيلاء صور. سواء كانت تلك الانتصارات تعود إلى رد الفعل الحتمي عند المسلمين على تحدي النصارى الدخلاء، أم ترجع إلى ما اشتهر به كبار القادة والزعماء الذين سبقوه من سياسة بعيدة النظر، أم تعود إلى ما وقع بين الصليبيين أنفسهم من منازعات وانشقاق وحماقات، أم ترجع إلى شخصيته، فإنه أثبت بالدليل القاطع، ما لدى الشرق من قوة وروح؛ ففي معركة قرون حطين، وعلى أبواب بيت المقدس، انتقم صلاح الدين لما حدث للمسلمين في الحملة الصليبية ولما وقع عليهم من المهانة والإذلال، وأثبت كيف يحتفل الرجل الشريف بانتصاره، وذلك على حد قول ستفنر انسمان.

إن ما قام به صلاح الدين من أعمال تُعد من الانجازات البالغة الأهمية؛ فقد أتم جهود نور الدين بتوحيد الجبهة الإسلامية، وطرد الدخلاء الغربيين من القدس الشريف إلى شريط ضيق على الساحل الفلسطيني، ولكنه لم يتمكن من طردهم نهائياً؛ إذ أن الملك ريتشارد وقوات الحملة الصليبية الثالثة كانوا من الضخامة ما لم يكن بوسعه أن يتغلب عليهم. ولو أعقبه قائداً آخر من طرازه، لتيسر إنجاز ما تبقى من العمل، الذي كان ضئيلاً. ولكن مأساة المسلمين في العصور

الوسطى، تتمثل في الافتقار إلى النظم الثابتة اللازمة للاضطلاع بالسلطة بعد وفاة الزعيم. وكانت الخلافة هي النظام الوحيد الذي كان له من الثبات ما يكفل استمرارها بعد موت متوليها. ولم يكن الخليفة وقتذاك قوياً من الناحية السياسية، ولم يكن صلاح الدين من الخلفاء، بل كان فرداً مسلماً لم ينحدر من أسرة كبيرة، ولم يفرض على العالم الإسلامي أن يطيعه إلا بقوة شخصيته افتقر ابناؤه ومن خلفوه إليها.

الأوضاع في الشرق بعد وفاة صلاح الدين

لقد جاءت وفاة صلاح الدين تشكل خسارة كبرى للجبهة الإسلامية المتحدة؛ فقد تصدعت هذه الوحدة، وضعف مركز المسلمين بسبب ما نشب من منازعات وحروب أهلية بين أفراد عائلة صلاح الدين وورثته حول تقسيم التركة. وهو أمر جعل من المتعذر الاحتفاظ بحالة من الاستقرار تضمن استمرار السلم بين المسلمين والصليبيين، خاصة وأن هنري دي شامبين ملك المملكة الصليبية كان يعمل على توحيد صفوف النصارى في أنطاكية وأرمينيا، وقبرص وعكا، على الرغم من حرصه على ألا يبدأ بالعدوان على المسلمين، وألا يخرق صلح الرملة الذي يمتد حتى نهاية سنة (١١٩٥).

ويبدو أن أخبار وفاة صلاح الدين وتقسيم دولته وما تبع ذلك من منازعات وحروب بين الورثة أغرى المتحمسين في أوروبا الغربية على القيام بحملة صليبية جديدة بغرض استرداد بيت المقدس من المسلمين. وكان هنري السادس إمبراطور ألمانيا (١١٩٠- ١١٩٧) وابن فريدريك باربا روسا، من أشد المتحمسين آنذاك لهذه الفكرة؛ خاصة وأنه رأى

فيها فرصة لتحقيق حلمه في تكوين إمبراطورية عالمية تضم بالإضافة إلى بيت المقدس، الشرق كله بما في ذلك الدولة البيزنطية. وكان هذا هو البرنامج الذي وضعه لحملته في نهاية سنة (١١٩٥). ولكن الإمبراطور الألماني لم يتمكن من القدوم إلى الشرق لجعل أحلامه حقيقة نظراً لوفاته في سنة(١١٩٧)، في حين بدأت – قبل موته– جموع الصليبين الألمان تتوافد على بلاد الشام. ونظراً لعدم مجيء الإمبراطور أو أحد كبار أمرائه على رأس تلك الحملة جعلها تنتهي إلى لا شئ سوى أنها فتحت باب النزاع بين المسلمين والصليبين في وقت كانت المملكة الصليبية أحوج ما تكون فيه للعيش بسلام مع جيرانها المسلمين.

ذلك أنه حدث أن هاجم هؤلاء الألمان– بعد نزولهم في عكا – الأراضي الإسلامية وقتلوا بعض المسلمين؛ وهو أمر لم يستطع الملك العادل – شقيق صلاح الدين وحاكم دمشق –السكوت عليه. فأرسل يطلب النجدة من بقية أمراء بني أيوب الذين بعثوا بجيوشهم التي لم تلبث أن أحاطت بالألمان بالقرب من عكا. وقد حاول هنري دي شامبين نجدة الألمان ولكن الهزيمة حلت به و بجيشه في معركة وقعت عند تل العجول بالقرب من غزة. كما تمكن العادل أيضاً من انتزاع يافا وبذلك جاءت خسارة الصليبين مزدوجة.

ونظراً لأن أمالريك الثاني (لوزينان*) الذي خلف هنري على عرش المملكة الصليبية، لم يكن على استعداد لخوض حرب طويلة

---

*أمالريك (عموري) الثاني هو ملك قبرص من آل لوزينان، تم اختياره للزواج من الملكة إيزابيلا لملئ عرش المملكة بعد وفاة هنري دي شامبين، وبذلك تم توحيد عرش قبرص ومملكة عكا.

الأمد مع المسلمين، ولأن الملك العادل كان في الوقت نفسه يرغب في أن يتفرغ لشؤون دولة بني أيوب، وافق الطرفان على عقد صلح في أول يوليو سنة(١١٩٨) اعتمد في أساسه على صلح الرملة المعقود بين صلاح الدين وريتشرد قلب الأسد، مع احتفاظ كل من المسلمين والصليبين بما حازوه من فتوحات جديدة؛ فاحتفظ الصليبيون، تبعاً لذلك بيروتوجبيل، بينما احتفظ العادل بيافا، وتم تقسيم صيدا مناصفة بينهما، واتُفق على أن تكون مدة الصلح ثلاث سنوات.

وكان أمالريك الثاني لوزينان شديد الحرص على ألا يستفز المسلمين أثناء فترة الصلح. على أنه حدث في نهاية سنة (١٢٠٢) أن وصل إلى عكا جماعة من الفلمنكيين، ثم لحق بهم في أوائل العام التالي (١٢٠٣) مجموعة من الفرنسيين. واجتمع القادمون الجدد وطالبوا أمالريك بمهاجمة المسلمين. ولكن أمالريك كان يدرك مدى تهور هؤلاء الصليبين، ونقص خبرتهم وقلة عددهم وعدتهم فنصحهم بالتريث حتى يأتي الوقت المناسب والقوة المناسبة، وبخاصة بعد ورود أنباء عن قرب وصول حملة صليبية جديدة.

وقد أدت حماقة أولئك الصليبيون وإصرارهم على مهاجمة أراضي المسلمين إلى قيام الملك المنصور صاحب حماه بمنازلتهم وإنزال الهزيمة بهم قرب اللاذقية. ويبدو أن الاعتقاد في قرب وصول الحملة الصليبية الرابعة إلى الشام أو مصر كان له أثر كبير في جعل كل من الصليبين والمسلمين يؤثرون عدم القيام بأي عمل حربي حاسم ضد بعضهم حتى بعد وصول أنباء دخول الصليبيين القسطنطينية؛ لأن الجميع

ظنوا أن القسطنطينية ليست سوى محطة في طريقهم إلى الهدف النهائي، وأنهم سوف يحضرون إلى الشام. لذلك رأى أمالريك الثاني أنه ليس من الحكمة مهاجمة المسلمين قبل وصول تلك الحملة، في حين رأى الملك العادل أنه من الخطأ أن يستنفذ قوته في مناوشات جانبية، وأن عليه أن يدخر كل قواته وطاقته لمواجهة الحملة الصليبية المنتظرة.

ولكن بعد أن تبيّن للجميع أن الحملة المنتظرة لن تأتي إلى الشام، وأن هدفها كان القسطنطينية والاستقرار بها، وبعد أن فقد أمالريك أي أمل في وصول نجدة من الغرب، وبعد أن اتضح له أن إمبراطور الإمبراطورية اللاتينية التي تأسست في القسطنطينية باشر في منح إقطاعات في البلقان لكثير من الفرسان الذين هجروا بلاد الشام – وهو أمر أضرّ كثيراً بقوة الصليبيين – آثر عقد الصلح مع المسلمين. وفي الوقت نفسه لم تكن رغبة الملك العادل في عقد الصلح بأقل من رغبة أمالريك وأنه كان يفضّل اتباع سياسة مع أوربا الغربية تقوم على أساس من التسامح الديني والاهتمام بالتبادل التجاري. وتبعاً لذلك تم عقد الهدنة بين المسلمين والصليبيين في سبتمبر سنة (١٢٠٤). ولم تكد تنتهي الهدنة في يوليو سنة (١٢١٠) حتى أرسل العادل إلى الملك الجديد جون (يوحنا) دي براين في عكا يطلب تجديدها، فوافق الملك الجديد وبقية الطوائف الصليبية كالاسبتّاريةوالتيوتون وغيرهم، فيما عدا الداوية الذين اختاروا بحماقتهم المعهودة استئناف الحرب ضد المسلمين، ولكنهم لم يلبثوا أن خضعوا لضغط بقية الطوائف الصليبية ويُقروا مبدأ الصلح مع المسلمين الأمر الذي ترتب عليه عقد هدنة بين الملك العادل

والملك يوحنا دي براين في يوليو سنة (١٢١١) لمدة ست سنوات (١٢١٧).

ولعل إمعان العادل في مسالمة الصليبين ومنحهم الهدنة تلو الأخرى، كان أمرا لا يتفق بأي حال وحماسة المسلمين آنذاك ورغبتهم في الجهاد، وهي الحماسة التي عبّرت عن نفسها – كما تذكر المصادر العربية – في اجتماعات المسلمين في جوامع دمشق ونابلس. كما أنها أعطت الصليبيين – في الوقت نفسه – متنفساً لم يكونوا يحلمون به واستغلوه في الطلب المتكرر للنجدة من الغرب الأوربي. وهكذا لم يكد ينتهي أجل الهدنة الأخيرة حتى كانت خطة جون دي براين قد أثمرت، وبدا أن استغاثته بالغرب قد أفلحت؛ حيث بدأت فعلاً جموع الصليبين تشق طريقها إلى الشرق في سنة (١٢١٧).

الحملة الصليبية الرابعة (١١٩٨– ١٢٠٤)

دعا إلى هذه الحملة البابا أنوسنت الثالث، وكانت مدفوعة منذ بدايتها بأغراض دنيوية، وتشكلت من العناصر الناقمة على الإمبراطورية البيزنطية لاعتبارات مذهبية، وسياسية، واقتصادية. وتُعد هذه الحملة حملة أمراء، وساهم فيها وتولى قيادتها عدد كبير من البارونات الفرنسيين والفلمنكيين وغيرهم، وإن كانت الغلبة فيها للعنصر الفرنسي.

وعلى الرغم من أن البابا أنوسنت الثالث وضع للبابوية برنامجاً ضخماً يأتي في مقدمته محو آثار حروب صلاح الدين في الشرق، وانتزاع بيت المقدس مرة أخرى من المسلمين، فإن المسألة الأولى التي واجهت

العناصر الصليبية في الحملة الرابعة كانت تحديد وجهة الحملة. وهنا ظهر تباين شديد في الرأي؛ إذ رأى صغار النبلاء وعامة الفرسان أن تكون وجهتهم بلاد الشام وأن يشقوا طريقهم مباشرة إلى بيت المقدس، بينما رأى كبار الأمراء والقادة أن يستفيدوا من آراء أمالريك الأول ملك بيت المقدس الأسبق ومن النصائح التي أشار بها ريتشارد قلب الأسد المتعلقة بالاستيلاء على مصر، بوصفها مركز المقاومة الفعلي ضد الصليبيين بالشام، والمخزن الكبير الذي استمد منه صلاح الدين موارده البشرية والمالية في محاربة الصليبيين. أضف إلى هذا أن إعادة توحيد الدولة الأيوبية تحت زعامة الملك العادل، جعل من الخطورة على الصليبيين أن يتوجهوا لحصار بيت المقدس، لأن ذلك سوف يعرضهم للوقوع بين فكي الكماشة، أي بين قوات العادل القادمة من مصر وتلك التي تأتي من دمشق. هذا فضلاً عن وجود نسبة كبيرة من التجار الإيطاليين في موانئ دلتا النيل – وبخاصة دمياط والإسكندرية – وأن هؤلاء سوف يتعرضون لانتقام السلطات المصرية إذا هاجم الصليبيون بيت المقدس. إذن من الأجدر لهم أن يبدأوا بمهاجمة شواطئ مصر الشمالية لحماية أولئك التجار وفي الوقت نفسه تأمين الجبهة الجنوبية لفلسطين. ثم بعد ذلك يمكنهم الاستيلاء على بيت المقدس إما عن طريق المساومة أو عن طريق القوة. وهكذا استقر الرأي على أن تكون مصر هي هدف الحملة.

ولكن المشكلة التي واجهت الصليبيين الآن – بعد أن تحددت وجهة الحملة – هي وسيلة النقل التي سوف تنقلهم إلى الشواطئ المصرية؛

فاتصلوا بالبندقية وعقدوا معها اتفاقاً لهذا الغرض في سنة (١٢٠٢). وفي صيف سنة (١٢٠٢) بدأ الصليبيون فعلاً يحتشدون في البندقية. ونظراً لأن البندقية كانت دائماً تولي اهتماماً كبيراً لمصالحها الخاصة، فإنها رأت فرصة الإفادة من الموقف وتحقيق مكاسب خاصة على حساب الصليبيين والبابوية معاً. لذلك انتهزت فرصة عدم توفر المال اللازم لدى الصليبيين وعجزهم عن دفع أجرة نقلهم إلى مصر وطلبت منهم أن يقوموا بمهاجمة ميناء زارا على الشاطئ المقابل للبحر الإدرياتيكي، واسترداده من المجريين في مقابل ثمن نقلهم بالسفن إلى مصر. وقام الصليبيون فعلاً – رغم اعتراض البابا – في أكتوبر سنة (١٢٠٢) بانتزاع الميناء وتسليمه للبنادقة. وكان ذلك أول مكسب مادي حازته البندقية، ودليل واضح على بداية انحراف الحركة الصليبية.

وفي الوقت الذي كان الصليبيون يستعدون للإبحار إلى مصر، إذا بثورة تندلع في القسطنطينية وتؤدي إلى خلع الإمبراطور إسحاق الثاني وفرار ابنه أليكسيوس الذي التحق بالصليبيين قبل مغادرتهم ميناء زارا وقدّم لهم عرضًا مغريًا لم يكن بمقدور البنادقة ولا البابوية رفضه. ويتلخص العرض في القدوم إلى القسطنطينية وإعادة الإمبراطور المخلوع إلى عرشه مقابل :

١- العمل على اتحاد الكنيستين.

٢- دفع مبلغ كبير من المال.

٣- الإسهام بحملة تساعد الصليبيين في الاستيلاء على مصر .

ومن الطبيعي ألا تفوّت البندقية هذه الفرصة التي سوف تحقق لها فوائد مادية ضخمة ومصالح اقتصادية كبيرة، والثأر من البيزنطيين الذين حرموها من امتيازاتها التجارية واستبدلوها بغريمتها ومنافستها جنوا. هذا فضلاً عن أن البنادقة لم يكونوا على استعداد للتضحية بما صار لهم آنذاك من مصالح اقتصادية وامتيازات تجارية في مصر منحتها لهم المعاهدة التي وقعّوها مع الملك العادل في سنة (١٢٠٢).

وإذا أضفنا إلى ذلك كله العلاقات السيئة التي نشأة بين الصليبيين و البيزنطيين منذ الحملة الصليبية الأولى، وموقف الدولة البيزنطية السلبي من الحملات الصليبية المتتالية، ونظرتهم الازدرائية للصليبيين وللغرب اللاتيني بشكل عام - واعتقاد الغرب الأوربي وحتى البابوية – إلى حد بعيد – أن الدولة البيزنطية مسؤولة عن عرقلة جهود الصليبيين في بلاد الشام، و الكراهية القديمة المتبادلة بين الكنيستين الشرقية و الغربية، ورغبة البابا أنوسنت الثالث في تحقيق سيادة البابوية العالمية وإدخال الكنيسة الشرقية تحت نفوذه؛ لأدركنا لماذا استهوت فكرة تغيير وجهة الحملة من مصر إلى القسطنطينية الأطراف كافة وبخاصة البندقية.

وهكذا انحرفت الحملة الصليبية الرابعة عن وجهتها الأساسية ، وتحولت إلى القسطنطينية التي استولى عليها الصليبيون في سنة (١٢٠٤). وقد نسي الصليبيون أنهم اقتحموا بلدًا نصرانيًا فانتشروا في الشوارع يقتلون كل من صادفهم، ويدنّسون الكنائس والأديرة، حتى أن شاهد عيان تمنّى لو أن العاصمة البيزنطية سقطت في يد المسلمين الذين

لم يفعلوا بالنصارى وبيوتهم حينما دخلوا بيت المقدس مثلما فعله الصليبيون بأهل القسطنطينية وكنائسها.

وقد اقتحم الصليبيون القسطنطينية وتم لهم السيطرة عليها في اليوم الثالث من أبريل سنة (١٢٠٤)، بعد قيام ثورة فيها بسبب الاجراءات التعسفية التي اتبعها اليكسيوس الرابع في جمع الضرائب من أجل سداد الديون المستحقة للصليبيين حسب الاتفاق السابق، وأدت إلى مقتله هو والده اسحاق الثاني. وقد تم ذلك وفقًا لاتفاق توصل إليه الصليبيون في مؤتمر انعقد خارج أسوار القسطنطينية في مارس (١٢٠٤) وجاء فيه:

١- تحصل البندقية على ثلاثة أرباع الغنائم المنتظرة.

٢- تشكيل لجنة لانتخاب إمبراطور لاتيني تتألف من اثني عشر عضوًا نصفهم من البنادقة. وأن يكون للإمبراطور ربع الإمبراطورية وتقسيم الثلاثة أرباع الباقية بالتساوي بين البنادقة و الصليبيين.

٣- الاحتفاظ بالقوة العسكرية لمدة سنة بعد سقوط القسطنطينية .

٤- لا يجوز لمواطن أية حكومة في حالة حرب مع البندقية الدخول إلى الإمبراطورية.

٥- يؤدي الإمبراطور القسم على احترام كافة الاتفاقات التي تم عقدها بين الأمراء الصليبيين من جهة وبين البنادقة من جهة أخرى .

نتائج الحملة الصليبية الرابعة :

فإذا صرفنا النظر عما ترتب عن تلك الحملة من نتائج مادية وسياسية، ونظرنا إليها من الزاوية الأدبية وحدها، لوجدنا أن هذه الحملة ارتكبت جرمًا عظيمًا لا يغفره التاريخ في حق الحضارة الأوربية

وفي حق الفكرة الصليبية ذاتها. وأن ما ارتكبه رجال الحملة الصليبية الرابعة من حماقات ليُثبت أن البيزنطيين كانوا على حقٍ عندما نظروا منذ البداية إلى الحروب الصليبية على أنها غزوات بربرية همجية .

وأما من ناحية تطور الفكرة الصليبية ، فليس ثمة من شك في أن الحملة الرابعة تُعد نقطة تحول خطيرة في تاريخ الحروب الصليبية؛ إذ فترت بعدها الحماسة الصليبية ، وبدأت المصالح الاقتصادية و التجارية تحتل المكانة الأولى في تفكير المعاصرين. ثم إن الحملة الصليبية الرابعة زادت من البغضاء و العداء و الكراهية بين الكنيستين الشرقية و الغربية بشكل غير مسبوق، وحرمت الصليبيين بالشام من مساندة نصارى القسطنطينية وقت الحاجة ، وجعلت الطريق البري إلى الشام أصعب منالاً وأكثر خطورة على الصليبيين من ذي قبل. هذا فضلاً عن أن الإمبراطورية اللاتينية الصليبية التي تشكلت في القسطنطينية و البلقان كان لها أثر كبير على حياة الصليبيين في الشام؛ إذ اجتذبت إليها كثيرًا من المغامرين الذين فكروا في النزوح إلى الشرق، بل أنها لم تلبث أن استهوت العديد من الفرسان الصليبيين من بلاد الشام ذاتها لينعموا بشيء من الحياة الهادئة بعيدًا عن تهديد المسلمين ومتاعبهم، ولذلك يمكن القول بأن الحملة الصليبية الرابعة أدت – بصورة مباشرة أو غير مباشرة – إلى إضعاف مركز الصليبيين بالشام، وإلى تناقص عدد المقاتلين في بلادهم، بدلاً من مساندتهم ورفع معنوياتهم ومساعدتهم في تخفيف الضغط المفروض عليهم من المسلمين الأمر الذي دفع أحد

مؤرخي الحروب الصليبية إلى القول " أن الحملة الصليبية الرابعة جاءت نذيرًا بفشل الحركة الصليبية بأكملها " .

الحملة الصليبية الخامسة

وفي مجمع اللاتيران الذي انعقد سنة (١٢١٥) بدت الفرصة سانحة لأنوسنت الثالث لكي يزيد من اضرام النيران بعد أن أخذت في الذبول فأعلن في الحشد المجتمع من جميع أنحاء أوربا عن قيام حملة صليبية جديدة تمضي في طريقها إلى الشرق في سنة (١٢١٧). كما تقرر أن تستمر هدنة الله في السنوات الأربع القادمة، وأن تتوقف أثناء هذه الفترة كل ما يجري من اتصالات تجارية مع الشرق الأدنى. وهذا أمر ليس بالجديد؛ إذ تقرر في مؤتمر اللاتيران الذي انعقد سنة (١١٧٩) منع المتاجرة في المواد الحربية مع المسلمين، وتجدد هذا الحضر مع بداية بابوية أنوسنت الثالث. وكان البابا أوربان الثاني قد أقرّ تجديد سلام الله، وهدنة الله في أوربا وتمديدها عند إعلانه عن قيام الحروب الصليبية في مؤتمر كليرمونت سنة (١٠٩٥). هذا بالإضافة إلى أن مؤرخي الحروب الصليبية في القرن الرابع عشر اعتبروا وقوع سلام في أوربا، وإشعال الحرب التجارية مع مصر من الشروط الواجب توافرها لنجاح الصليبيين.

على أنه يبدو واضحاً أن مصر – ومنذ بداية القرن الثالث عشر – غدت محط أنظار دعاة الحرب الصليبية وقادتها؛ بعد أن تأكد للصليبيين في الشرق وأنصارهم في أوربا أنها تشكل مركز الثقل السياسي، ومصدر المقاومة الحقيقية بما تمتلكه من موارد بشرية

ومالية ضخمة. وأن الصليبيين أضحوا شبه مطوّقين بالمسلمين منذ أن ضم شيركوه مصر لأملاك نور الدين، وتوحدّت بشكل نهائي مع بلاد الشام في عهد صلاح الدين.

وباختصار، فإن دعاة الحركة الصليبية والمتحمسين لها أدركوا – مع نهاية القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر– بما يدعو مجالاً للشك أن مقولة " أن مفاتيح بيت المقدس موجودة في القاهرة " هي مقولة حقيقية، وأن عليهم البدء باحتلال مصر بصفتها الطريق الطبيعي والوحيد المؤدي إلى بيت المقدس. ولا عجب في ذلك؛ فقد راودت هذه الفكرة قادة الحملة الصليبية الأولى أثناء اجتماعهم الحربي الذي عقدوه في مدينة الرملة قبل الزحف على بيت المقدس سنة (١٠٩٩)، وتحدث عنها حامي القبر المقدس غودفري دي بويون، وحاول تنفيذها ملوك بيت المقدس بلدوين الأول ثم أمالريك الأول، وأخيراً ملك فرنسا لويس التاسع الشهير بالقديس.

وعلى الرغم من فشل هؤلاء جميعاً، فإن الفكرة ظلت حيّة في أذهان من خلفوهم من المستعمرين والصهاينة حتى تمكنوا – آخر الأمر– من مصر، ونجحوا في إخضاعها وتحييدها حتى ينفردوا ببقية دول المنطقة، وكانت العراق أول ضحايا تلك المؤامرة.

وكان البابا أنوسنت الثالث قد أشار أثناء انعقاد مؤتمر اللاتيران الرابع سنة (١٢١٥) أن هدف الحملة هو مصر، وتقرر تبعاً لذلك مهاجمة دمياط وحصارها. ولم يتمكن أنوسنت من المشاركة في الحملة لوفاته في سنة (١٢١٦)، فواصل خليفته أونوريوس الثالث (١٢١٦ – ١٢٢٧) –

الذي لا يقل حماسة عنه – الاستمرار في تجهيز الحملة. وتألفت الحملة الصليبية الخامسة من جيوش متعددة، وقامة في تواريخ متفاوتة، ووصلت إلى الشرق في أوقات مختلفة. ومن أهم هذه الجيوش: الفرقة المجرية بقيادة الملك أندرو وتشكلت في أغسطس (١٢١٧)، والفرقة النمساوية بقيادة الأمير ليوبولد في التاريخ نفسه، وفرقة المندوب البابوي بيلاجيوس التي ضمت فرساناً من فرنسا وانجلترا، وقطعاً من أساطيل جنوا وبيزا ووصلت إلى عكا قبل نهاية سنة (١٢١٨)، ثم الفرقة البلغارية سنة (١٢٢٠)، وأخيراً الفرقة المالطية التي شاركت في المرحلة الأخيرة من الحملة سنة (١٢٢١).

وقبيل نهاية سنة (١٢١٨) وصلت الفرقة التي يقودها بيلاجيوس. وانضمت إليها الفرق المجرية والنمساوية التي قدمت إلى عكا في السنة السابقة، وانتزع بيلاجيوس قيادة الحملة من جون دي براين ملك المملكة الصليبية، وشرعوا في حصار دمياط، وضيّقوا الخناق على القوات المصرية الأمر الذي دفع الملك الكامل – الذي خلف أباه العادل في مصر – إلى أن يعرض عليهم الصلح الذي تضمن التنازل عن القدس مقابل الانسحاب من الأراضي المصرية.

رفض بيلاجيوس العرض بتشجيع من فرق الاسبتارية والداوية، وبمساندة من تجار جنوا وبيزا والبندقية التي عارضت غزو مصر من قبل، ولكنها رأت الآن في احتلال الدلتا مكاسب تجارية ضخمة تفوق بكثير استرداد بيت المقدس، فضلاً عن أنهم كان يحذوهم الأمل في الاستيلاء على البلاد المصرية كلها، على الرغم من قبوله من طرف

الملك دي براين. ثم كرر الكامل العرض مرة أخرى في أكتوبر سنة (١٢١٩)، فأصر بيلاجيوس على رفضه ثانية وفي ٥ نوفمبر سنة (١٢١٩) سقطت دمياط في أيدي الغزاة الصليبين بعد صمود دام لأكثر من تسعة أشهر.

وبعد أن أتم الصليبيون استعدادهم شرعوا في الزحف صوب القاهرة وخاصة بعد وصول الفرقة البلغارية في ربيع سنة (١٢٢١)، وهناك جدد الكامل عرضه مُضيفاً إليه هذه المرة التنازل عن كل فلسطين ودفع جزية سنوية. وتعنّت بيلاجيوس للمرة الثالثة ورفض العرض. ولكنه لم يلبث أن اضُطر إلى قبول الصلح من دون مقابل في أواخر أغسطس سنة (١٢٢١)، وذلك على أثر الكارثة التي نزلت بهم من جراء ارتفاع مناسيب مياه النيل وكسر السدود، فضلاً عن هزيمتهم على يد المصريين ومطاردتهم حتى دمياط. و تم تبادل الأسرى، كما تقرر أن تكون مدة الصلح ثماني سنوات. وهكذا جلا الصليبيون عن مصر، وجاءت الحملة الصليبية الخامسة إلى نهايتها.

الحملة الصليبية السادسة (١٢٢٨ – ١٢٢٩)

لقد غطى نجاح الحملة الصليبية السادسة وما أحرزته من نتائج على ما باءت به الحملة الصليبية الخامسة من فشل؛ فالحملة الأخيرة كانت قبل كل شيء خاضعة للإشراف البابوي من خلال الكاردينال بيلاجيوس الذي قادها إلى مصيرها المحتوم. وأما الحملة السادسة أو ما يُعرف أحياناً بحملة فريدريك الثاني (١٢٢٨ – ١٢٢٩) إمبراطور ألمانيا، فهي حملة علمانية خالصة، كما أنها تُعد حملة فريدة في نوعها في

حوليات الحروب الصليبية، فهي من دون الحملات الصليبية الأخرى – باستثناء الحملة الرابعة التي تشبهها من بعض الوجوه – التي لم تباركها البابوية، بل أمطرتها باللعنة وصبّت عليها جامّ غضبها، وهي الوحيدة من بين الحملات الصليبية التي جرى توجيهها نحو الشرق، ولم تقم بأي عمل عدائي ضد المسلمين.

على أن فريدريك الثاني كان مقطوعاً من الكنيسة عندما وصل إلى عكا في سبتمبر سنة (١٢٢٨)؛ أي أنه خرج على رأس الحملة الصليبية إلى الشرق قبل أن يحصل على تحلل من قرار الحرمان الذي سبق وأصدرته الكنيسة في حقه.

وقد استطاع عن طريق المفاوضات تارة وعن طريق الاستعراض العسكري تارة أخرى، فضلاً عن الإفادة من المنازعات التي كانت دائرة بين أبناء البيت الأيوبي، أن يحقق - حسبما تروي المصادر– من النتائج الباهرة من دون إراقة دماء، ما لم يتمكن غيره من احرازه بحد السيف على مدى الأربعين سنة السابقة؛ أي منذ استرداد المسلمين لبيت المقدس في سنة (١١٨٧).

وفي ١٨ فبراير سنة (١٢٢٩) توصل السلطان الكامل والإمبراطور فريدريك إلى عقد معاهدة نصت بنودها على:

١- أن يكون أمدها عشر سنوات.

٢- تقرر أن يتنازل السلطان الكامل، للإمبراطور فريدريك إلى جانب ما في حوزة النصارى فعلاً من المدن الساحلية على الناصرة، وبيت لحم، وبيت المقدس ويمنحهم طريقاً يصل بينهما وبين عكا.

٣- إطلاق سراح الأسرى لكلا الجانبين.

ولم تلق معاهدة من المعاهدات مثلما لقيت هذه المعاهدة من الإجماع على استنكارها من الجانبين: إذ ارتاع العالم الإسلامي لما جرى فيها من تنازلات، فأعلن الناصر داوود صاحب دمشق الحداد لما حصل من خيانة للمسلمين، وتعرّض الكامل للوم والتأنيب حتى من أئمة مساجده. وأما النصارى فإنهم أدركوا أهمية الموقف العسكري: فغلاة الصليبيين أعربوا عن حزنهم لأن بيت المقدس لم تُسترد بقوة السلاح، وامتعضوا لاحتفاظ المسلمين بمشاهدهم (مزاراتهم)، وأن رجوع بيت المقدس لم يكن مصحوباً بالاستيلاء على شرق الأردن. وبفضل هذه المعاهدة تمكن الصليبيون من حيازة بيت المقدس لمدة خمس عشرة سنة من (١٢٢٩ حتى ١٢٤٤).

تعقيب :

وثمة من مؤرخي الحروب الصليبية من ينتقد فريدريك الثاني والأسلوب الذي انتهجه لإحراز ما حققه من نجاحات، على الرغم من اعترافهم بأنه لم يحدث – حتى عهده – أن أعاد أحد للنصارى الأماكن التي تعد أعظم مقدساتهم. ومع ذلك – يقول أحدهم – يصح أن نتساءل – حقًا وعدلاً – عما إذا كانت الوسائل التي استخدمها فريدريك الثاني يبررها ما حققه من أهداف؟ إذ أنه وكيفما كان الأمر فإن الحملة السادسة لم تتخذ صفة الحرب المقدسة، إنما الذي حدث فعلاً، هو نوع من المساومة الرخيصة (الحقيرة)، مثلما يجري عادة في أي سوق من أسواق الشرق، بين ملك صقلية(فريدريك الثاني) الشهير بحريته

الفكرية، وتحرره الديني، وميله نحو الشرق، وبين سلطان مصر. و الواقع أن فريدريك تصرف بروح ملك صقلية، لا بروح ملك بيت المقدس، وهو ما كان لابد أن يقوم به. حيث يبدو أنه ورث عن أسلافه ملوك صقلية، الذين عقدوا المعاهدات التجارية مع مصر، أن يجعل من الحرب – حتى وإن كانت صليبية – مسألة معاهدة .

وأما أمراء بني أيوب فقد استأنفوا الحرب الأهلية في أعقاب حملة فريدريك الثاني، ثم اشتبكوا في صراع متداخل منذ وفاة الكامل سنة(١٢٣٨). وقد أسفرت سلسلة من الحروب و المؤامرات بين مصر وأمراء سوريا و الجزيرة الفراتية عن استعادة الصالح إسماعيل لدمشق وعن خلع العادل الثاني، وتنصيب الصالح أيوب ملكًا على مصر. وقد تواصل الصراع بين الصالح أيوب وبقية الأمراء الأيوبيين حول السلطة في سوريا، و الذي تسابقت فيه الأطراف المتنازعة على الاستنجاد بالصليبيين و الخوارزميين ضد بعضها. وأخيرًا استطاع الصالح أيوب بمساندة من الخوارزميين أن يُنزل خسائر كبيرة بالمعسكر الصليبي وأن يسترد القدس سنة (١٢٤٤)، ثم لم يلبث أن استولى على عسقلان سنة (١٢٤٧) .

الحملة الصليبية السابعة

وإذا كانت الحملة الصليبية الثالثة نتاج استرداد المسلمين لبيت المقدس بعد معركة حطين سنة (١١٨٧)، فإن ضياعها للمرة الثانية في سنة (١٢٤٤) أدى إلى قيام الحملة الصليبية السابعة. وأن ما حدث من الدعوة للحملة الصليبية الخامسة في مجمع اللاتيران الرابع سنة (١٢١٥)،

جرى أيضاً ما يماثله من الدعوة للحملة الصليبية السابعة في مجمع انعقد في ليون سنة (١٢٤٥). ولكن دعوة البابا أنوسنت الرابع للحملة الأخيرة لم تلق آذاناً صاغية في ألمانيا نظراً لخلافه مع الإمبراطور فريدريك الثاني، كما لم يكن الملك الإنجليزي هنري الثالث في وضع يسمح له بالمشاركة. وأما البندقية فلم تكن على استعداد للإسهام في الحملة حفاظاً على مصالحها التجارية مع مصر. في حين تعهدت بيزا وجنوا بتقديم المساعدة. والسلطة العلمانية الوحيدة التي أظهرت من الحماس الديني مثلما يُظهره بابا من البابا وات، تمثلت في ملك فرنسا لويس التاسع الملقب بالقديس.

ذلك أنه حدث في نهاية السنة التي استرد فيها المسلمون للمرة الأخيرة بيت المقدس(١٢٤٤) أن وعد لويس التاسع القيام بحملة صليبية. واستغرقت الاستعدادات ثلاث سنوات؛ إذ تقرر جباية ضرائب استثنائية للإنفاق على الحملة، ولم يُعف حتى رجال الدين من أدائها الأمر الذي أثار استيائهم.

وفي ١٢ أغسطس (١٢٤٨) غادر لويس فرنسا قاصداً قبرص التي وصلها في ١٧ سبتمبر. وفي اجتماع حربي ضم القادمين من فرنسا والبارونات الذين جاءوا من عكا وسوريا، تمت مناقشة خطة الحملة فوافق الجميع على أن تكون مصر هي الهدف باعتبارها أغنى الأقاليم الأيوبية وأيسرها منالاً؛ إذ يبدو أنهم تذكّروا ما جرى من تنازلات قدّمها السلطان الكامل أثناء الحملة الصليبية الخامسة شملت بيت المقدس في سبيل الجلاء عن دمياط.

وفعلاً دخلوا في مفاوضات مع السلطان الصالح أيوب من أجل التنازل للصليبين عن بعض الأراضي. ولكن لويس لم يكن مقتنعاً بتلك المفاوضات وقال أنه لم يأت إلا لقتال المسلمين لا للانغماس في الدبلوماسية. وأمر بإيقاف المفاوضات.

❖ اتصالات لويس التاسع بالمغول:

ومن قبرص أجرى القديس لويس أول اتصال له بالمغول؛ إذ حدث أن وصل إلى نيقوسيا في نوفمبر سنة (١٢٤٨) مبعوثان نسطوريان من طرف الجنرال الجيغداي Aljighidai الذي كان ممثلاً عن الخان الكبير في الموصل. وقد أعرب المندوبان للويس عن رغبة الجنرال المغولي في التعاون مع الصليبين. وقد لاقت هذه الرغبة قبولاً عند الملك الفرنسي الذي لم يلبث أن قام بإرسال بعثة إلى معسكر الجنرال المغولي في يناير سنة(١٢٤٩) الذي وجهها بدوره إلى منغوليا. ولما وصل الوفد إلى العاصمة قراقورم كان كيوك – الخان الأعظم – قد مات، وأن أرملته قايميش Qaimish تولت الوصاية على العرش. فاستقبلت الوفد واعتبرت الهدايا رمزاً لولاء الملك الفرنسي للعرش المغولي، واعتذرت عن إرسال حملة ضد المسلمين لا حباً فيهم ولكن بسبب النزاع الذي كان قائماً على العرش المغولي. وفي الوقت نفسه بعثت برسالة إلى الملك الفرنسي تؤكد فيها سيادتها ، وتقول له أنه على التابع أن يبعث إليها هدايا من هذا القبيل كل سنة. ومع ذلك فإن لويس التاسع لم يفقد الأمل في أن يتحقق التحالف مع المغول في يوم من الأيام.

وفي ٣٠ مايو سنة (١٢٤٩) أبحرت الحملة من قبرص قاصدة

مصر. وفي ٤ يونيو وصل الأسطول دمياط. وكان الصالح أيوب يتوقع أن يكون قدوم الحملة إلى سوريا، ولكنه حينما تأكد أن الهجوم موجّه ضد مصر لم يلبث أن عجّل بالعودة إلى مصر. وفي فجر ٥ يونيو بدأ الصليبيون عملياتهم الحربية ضد دمياط التي لم تلبث أن وقعت في أيديهم. ولكنهم لم يتقدموا نحو القاهرة وقرروا البقاء في دمياط نظراً لقرب موسم فيضان النيل، ولأنهم كانوا ينتظرون قدوم الإمدادات من فرنسا.

وهكذا تحولت دمياط إلى مدينة صليبية، وأضحى المسجد الجامع مرة أخرى مثلما حدث في سنة (١٢١٩) كاثيدرائية، وتقرر تعيين أسقف لها، وحاز كل من الجنويينوالبيازنة سوقا وشارعاً مكافأة لهم على ما بذلوه من خدمات، كما نجح البنادقة في سعيهم للحصول على مكافأة مماثلة بعد أن أظهروا ندمهم على عدم موافقتهم السابقة. وظلت دمياط طوال شهور صيف سنة (١٢٤٩) عاصمة الشرق الصليبي، كما كانوا يطلقون عليها.

ارتاع العالم الإسلامي لضياع دمياط. وفي الوقت الذي تردد فيه الصليبيون في مغادرة دمياط، بادر السلطان بتقديم عرض مماثل للعرض الذي قدّمه أبوه قبل ثلاثين سنة مضت يتضمن التنازل عن بيت المقدس مقابل الجلاء عن دمياط. وبما أن الملك الفرنسي لويس التاسع كان صليبياً بما تحمل الكلمة من معنى، ويكره المسلمين ويرفض التعامل معهم، فإن ذلك العرض لم يلق منه سوى الرفض. وهكذا لم يبق أمام الصالح أيوب سوى الاستعداد للقتال، فاندفعت العساكر الإسلامية إلى

المنصورة[1] ومنها انطلقت تجوب الأرياف وتقتل كل من صادفها من العناصر الصليبية حتى بلغت أسوار دمياط.

ولكن حدث في نهاية أكتوبر(١٢٤٩) أن وصلت الإمدادات من فرنسا، وتزامن ذلك مع هبوط مياه النيل فقرر الصليبيون الزحف على القاهرة. وفي ٢٠ نوفمبر خرج الجيش الصليبي من دمياط وسلك الطريق المؤدي إلى المنصورة. وفي يوم٢٣ نوفمبر توفى السلطان الصالح أيوب، وكان ابنه الوحيد توارنشاه يقيم في إقليم الجزيرة الذي يحكمه نيابة عن أبيه. ولم يُنقذ مصر سوى السلطانة الأرملة شجر الدر، التي تآمرت مع الوزير فخر الدين وأخفت نبأ موت زوجها، وزوّرت وثيقة تحمل توقيعه تقضى بتعيين تورانشاه ولياً للعهد وفخر الدين قائداً عاماً للجيش ونائباً عن السلطان أثناء مرضه. وعندما تسربت أخبار وفاة السلطان تشجع الصليبيون وظنوا أن حكومة مؤلفة من امرأة وقائد طاعن في السن لن تقف حاجزاً في طريقهم وأنها لن تلبث أن تنهار.

وفي ٧ ديسمبر سنة (١٢٤٩) دارت معركة بالقرب من فارسكور انهزم فيها المصريون، وفي فبراير باغت الصليبيون المعسكر المصري بالقرب من المنصورة واستولوا عليه. وهنا قرروا الاندفاع نحو المنصورة واحتلالها وعدم التريث حتى يلحق بهم الملك لويس. وفي شوارع المنصورة دارت معركة أبلى فيها المصريون وكبدّوا العدو خسائر فادحة في الأرواح والعتاد في أواخر فبراير(١٢٥٠) و في تلك الأثناء وصل تورانشاه إلى مدينة المنصورة، وكان قدومه إيذاناً بزيادة حدة المقاومة الإسلامية:

---

[1] المنصورة هي المدينة التي شيدها السلطان الكامل سنة (١٢١٩).

إذ أمر بإنشاء أسطول من السفن الخفيفة الذي لم يلبث أن صار يعترض السفن الصليبية التي تجلب المؤن من دمياط إلى معسكر الصليبين، حتى أنه حدث في ١٦مارس سنة (١٢٥٠) أن فقد الصليبيون قافلة مؤلفة من اثنتين وثلاثين سفينة. كل ذلك أدى إلى أن يتعرض معسكر الصليبيين لخطر المجاعة وانتشار الأمراض. كذلك أدرك الملك لويس في أوائل أبريل سنة (١٢٥٠) أنه لابد من التقهقر والانسحاب إلى دمياط وأذعن للتفاوض مع المسلمين. فأرسل إلى تورانشاه يعرض عليه أن يستبدل دمياط ببيت المقدس فرفُض عرضه. وهكذا لم يكن أمامه سوى الانسحاب إلى دمياط مهما كانت المخاطرة. وفي ٥ أبريل بدأ الصليبيون يتراجعون نحو دمياط. وعند فارسكور جرت معركة كبرى أجهز فيها المصريون على الصليبيين وأنزلوا بهم شر هزيمة، ووقع في أسرهم من لم يلق حتفه بما في ذلك الملك الفرنسي نفسه.

وشرعت المفاوضات بين الجانبين في المنصورة حول إطلاق سراح الملك وجيشه. وقد طلب الوفد المصري المفاوض في أول الأمر أن يتخلى لويس ليس على دمياط فحسب بل يتنازل أيضاً على جميع الممتلكات الصليبية بالشام. ولكن لويس أجاب أنه لا سلطان له على الصليبيين وممتلكاتهم في الشام، وأن تلك الممتلكات تخص الإمبراطور فريدريك الثاني وهو الوحيد الذي يملك حق التصرف فيها. وأخيراً تم الاتفاق على أن يدفع لويس خمسمائة ألف جنيه مقابل فداء الجيش الفرنسي، وأن يكون تسليم دمياط ثمناً لفداء الملك الفرنسي نفسه. على أن تورانشاه لم يلبث أن قُتل قبل أن يتم تنفيذ تلك الاتفاقية. ولعل أهم ما ترتب على مقتل

تورانشاه من تطور خطير في تاريخ الشرق الأدنى هو سقوط الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك في حكم مصر والشام.

لويس التاسع في عكا:

وحدث بعد وصول لويس التاسع إلى عكا، أن دعا أتباعه للاجتماع للتشاور فيما يمكن القيام به من عمل في المستقبل. ومع أن الظروف في فرنسا كانت تستدعي حضوره، ولكنه أحسّ أن الصليبيين في الشرق كانوا في أشدّ الحاجة إليه؛ ذلك أن ما حل من كارثة بالحملة الموجّهة ضد مصر لم تدمر فحسب الجيش الفرنسي، بل إنها كادت تحرم الشرق الصليبي من كل عساكره. فضلاً عن شعوره بالمسؤولية تجاه إطلاق سراح كل الأسرى الذين لا يزالون محتجزين في مصر، ومن ثم كان لابد أن يبقي في موضع قريب منهم. ولم يلبث أن جرى الاعتراف به حاكماً فعلياً للملكة الصليبية.

وأمضي الملك الفرنسي لويس في عكا قرابة أربع سنوات حاول خلالها:

١- الإفادة من النزاع الذي نشب بين أمير حلب الأيوبي والمماليك في مصر، بعد مقتل تورانشاه واغتصاب العرش الأيوبي. ومع أن الجانبين حاولا التقرب منه، إلا أنه فضّل التحالف مع المماليك نظراً لما وعد به أيبك من إطلاق سراح جميع الأسرى الفرنسيين، كما وعد أيضاً أنه متى احتل المماليك فلسطين ودمشق، فسوف يجري إعادة مملكة بيت المقدس القديمة التي تمتد شرقاً حتى نهر الأردن للصليبيين. ولكن هذا التحالف لم ينتج عنه أي شئ نظراً للتسوية التي تمت بين

الطرفين السوري والمصري في أبريل سنة (١٢٥٣) بوساطة الخليفة العباسي المستعصم.

٢- الدخول مع طائفة(الحشاشين) الإسماعيلية[1] في معاهدة دفاع مشترك سنة (١٢٥٢)، نظراً لما يعلمه من كراهية هذه الطائفة للمسلمين السنّيين.

٣- تجديد الاتصال بالمغول بغرض تطويق المسلمين وانتزاع بيت المقدس من أيديهم؛ فأرسل وفداً في سنة (١٢٥٣) إلى خاقان المغول يحثه على القيام بحملة مشتركة ضد المسلمين من جهتي الغرب والشرق. ولكنه اضطر إلى مغادرة عكا في ٢٤ أبريل سنة(١٢٥٤) والعودة إلى فرنسا نظراً لموت والدته واضطراب أحوال مملكته من دون أن يستلم جواب المغول.

❖ **تعقيب:**

لقد أدت حملة القدس لويس إلى توريط "الشرق الصليبي" في كارثة عسكرية مروعة؛ ومع أن إقامته في عكا لمدة أربع سنوات أسهمت كثيراً في إصلاح الضرر، فإن ما جرى من خسارة في القوة البشرية لم يتم تعويضها. ويرى فريق من المؤرخين لعله من الأفضل "للشرق الصليبي" أن الملك الفرنسي لم يغادر فرنسا مطلقاً، لأن فشله

---

[1] فرقة شيعية متطرفة تُنسب في نشأتها إلى الحسن الصباح لعبت دورًا مدمرًا في فترة الحروب الصليبية نظرًا لما قامت به اغتيال لقيادات إسلامية شهيرة يأتي في مقدمتها شرف الدولة مودود ، ومحاولتها اغتيال صلاح الدين . واستمرت في أعمالها الإرهابية إلى أن قضى عليها هولاكو سنة (١٢٥٦) والاستيلاء على قلعتهم الحصينة المعروفة باسم الاموت .

كان ضربة عميقة الأثر على الرغم من أنه عقد قبل رحيله معاهدة مع سلطان دمشق الناصر يوسف في ٢١ فبراير (١٢٥٤) الذي أصبح يدرك الخطر المغولي القادم، وفي الوقت نفسه يبدو أنه لم يعد له رغبة في قتال الصليبيين. وأما أيبك سلطان مصر فقد أراد أن يجنّب مصر خوض معركة كبرى والخطر المغولي على الأبواب، فعقد أيضاً معاهدة مع الصليبيين في سنة (١٢٥٥) مدتها عشر سنوات. ومع ذلك لم تتوقف الغارات على الحدود من الجانبين.

كذلك أدى رحيل لويس التاسع إلى اندلاع حرب أهلية شكّلت المدن الإيطالية الكبرى بيزا، وجنوا، والبندقية ومصالحها التجارية عناصرها ومدينة عكا ميدانها. فمن المعروف أن مختلف التجار الإيطاليين كانوا يشكلون أنشط العناصر في جميع موانئ الشرق، وذلك نابع من سيطرة الجمهوريات الإيطالية الثلاثة على تجارة البحر المتوسط. وتُعد تجارة الإيطاليين مع الشرق على درجة كبيرة من الأهمية والفائدة لكلا الجانبين الصليبي والإسلامي، فالصليبيون يعتمدون عليها في الحصول على أغلب ما يحتاجونه من موارد، بينما كانت أيضاً بالغة النفع للأمراء المسلمين الذين كانوا حريصين على ألا ينقطع هذا المصدر المدر للربح، وهو ما كان يدفعهم من حين لآخر إلى توقيع الهدنة مع الصليبيين.

الحملة الصليبية الثامنة أو حملة لويس التاسع الثانية:

لم ينس الملك لويس مطلقاً الأرض المقدسة؛ إذ دأب كل سنة على أن يرسل مبلغاً من المال للإنفاق على جماعة صغيرة من العساكر كان

قد تركها خلفه بعكا تحت قيادة نائبة جفرى ساچينس؛ ذلك أنه كان يأمل في أن يتوجّه مرة أخرى إلى الشرق على رأس حملة صليبية جديدة، ولكنّ الظروف في بلاده لم تمنحه الفرصة إلا في سنة (١٢٦٧) حينما شعر أنه بإمكانه البدء في الإعداد لحملة صليبية، فشرع في إعداد التدابير اللازمة وفي توفير الأموال الضرورية. وفي سنة (١٢٧٠) صار مستعداً للرحيل إلى فلسطين.

ولكن حدث في سنة (١٢٥٨) أن تولي عرش صقلية مانفرد الابن غير الشرعي للإمبراطور فريدريك الثاني الذي لقي من البابوية ما لقيه أبوه من معارضة وكراهية. ولذلك بدأت البابوية تحيك له المؤامرات وتبحث عن بديل له على عرش صقلية التي خضعت عُرفاً وتقليداً لسيادتها. ووجدت البابوية ضالتها في شارل كونت مقاطعة أنجو شقيق ملك فرنسا لويس التاسع الذي كان قليل الدين، وشديد القسوة وواسع الطموح. وفي سنة (١٢٦٥) زحف شارل على إيطاليا وأنزل الهزيمة بمانفرد وقتله في معركة بينفنتو. وبعد أن وطّد شارل نفسه في جنوب إيطاليا وصقلية، شغل باله إصرار أخيه لويس على القيام بحملة صليبية، فقرر لابد من الإفادة من الفرنسيين والأموال الفرنسية لمصلحته بدلاً من مساندة مملكة أخرى (عكا) ليس مستعداً – على الأقل في تلك الآونة – أن يعيرها اهتمامه. وكان شارل يخطط للهجوم على بيزنطة، ولكن لمّا تبيّن له أن ذلك أضحى متعذراً، رأى أنه من الضروري تحويل الحملة إلى جهة يجني من ورائها فائدة وربحاً.

كان المستنصر – أمير تونس والمسيطر على – كما تذكر

المصادر الغربية - الساحل الإفريقي المقابل لجزيرة صقلية – صديقاً للنصارى وشديد الميل إليهم، ولكنه أساء إلى شارل بإيواء جماعة من المنشقين الفارين من صقلية فأقنع شارل شقيقه لويس بأن أمير تونس مهيأ للتحوّل إلى النصرانية، وأن مجرد إظهار قدر قليل من القوة كفيل بأن يجعله يعتنق النصرانية، فضلاً عن أن ذلك سوف يُضيف إلى النصرانية إقليماً جديداً يقع في بقعة بالغة الأهمية من الناحية الاستراتيجية لكل حملة صليبية مستقبلية. وعلى الرغم من حالته الصحية السيئة ونصيحة المقربين منه بعدم النهوض بهذا المشروع، وثق لويس في أخيه شارل. وفي مستهل يوليو سنة (١٢٧٠) غادر لويس الأراضي الفرنسية على رأس حملة ضخمة قاصداً تونس، فوصل قبالة سواحل قرطاجة في ١٨ يوليو، ولكن أمير تونس لم يُبد من الدلائل من يشير إلى رغبته في التّحول إلى النصرانية، بل قام بإعادة تحصين عاصمته وتعزيز حاميتها. على أنه لم يكن في حاجة إلى مقاتلة هؤلاء الغزاة، فالمُناخ كفاه ذلك: إذ لم تلبث حرارة الجو أن أدت إلى تفشي المرض في المعسكر الفرنسي وقضى على ألوف الفرسان والأمراء والعساكر، وكان الملك من أوائل الذين عصف بهم الوباء. وقدم شارل بجيشه في ٢٥ أغسطس، وحاول لملمة الوضع حتى جاء الخريف حينما بذل أمير تونس مبلغًا من المال على سبيل التعويض فعاد شارل إلى صقلية وتفرقت الحملة

العلاقات المغولية الأوروبية وأثرها على الشرق وسقوط مدينة عكا

استطاع الصليبيون أن يحتفظوا لأنفسهم بقاعدة في سوريا استمرت ما يقرب من أربعين سنة بعد رحيل الملك الفرنسي لويس التاسع في ربيع سنة (١٢٥٤) لا بسبب قوتهم ووحدة كلمتهم، ولكن بفضل قوتين أوقفتا تقدم المماليك هما : إمارة دمشق وتحركات المغول.

ذلك أن مملكة بيت المقدس الصليبية أفادت – كما سبق وأن رأينا – منذ زمن مبكر يرجع إلى عام (١١٣٩) من التحالف مع دمشق، حين أدى الخوف من أتابك الموصل عماد الدين زنكي إلى التقارب بين الإمارتين. وحينما استولى نورالدين محمود على دمشق في عام (١١٥٤)، ثم ما حدث من وقوع الوحشة – فيما بعد – بينه وبين صلاح الدين في مصر، كل ذلك أدى إلى الإطالة في عمر المملكة الصليبية، ثم قام صلاح الدين في عام (١١٧٦) بتوحيد مصر ودمشق . ولكن المنازعات والحروب الداخلية لم تلبث أن نشبت بين دمشق والقاهرة بعد وفاته. ذلك أن ما وقع من حروب بين الملك الكامل ومنافسيه من البيت الأيوبي ساعد – إلى حد ما – فيما أحرزته الحملة الصليبية السادسة من نجاح – حملة فردريك الثاني. لأن ما حدث في مصر من انقلاب في عام (١٢٥٠) الذي أنهى حكم الأيوبيين وأتى بدولة المماليك، إنما أدى إلى أن تنفصل دمشق عن مصر، فبينما تولى أحد المماليك حكم مصر، اختار أمراء دمشق الملك الناصر الأيوبي أمير حلب سلطانًا.

وأما القوة الثانية والتي تُعد من العوامل الجديدة وأكثرها أهمية وخطورة بالنسبة لما وقع من أحداث في الشرق الأدنى، هو ما جرى من توسع لإمبراطورية المغول خلال القرن الثالث عشر. وهي الإمبراطورية

التي وضع حجر أساسها جنكيز خان في الربع الأول من ذلك القرن، وامتدت من بكين شرقًا حتى نهر الفرات ونهر الدنيبر غربًا. وثمة أمران جعلا للمغول أهمية في تاريخ الأراضي المقدسة ومصير الحروب الصليبية:

١- الأمر الأول، هو ما حصل من انفصال الجزء الجنوبي الغربي من هذه الإمبراطورية ، والذي يشمل فارس وأرمينيا وحكمه حوالي عام (١٢٥٠) هولاكو، وصار من المحتوم أن يرتبط هذا الجزء بعلاقات عدائية مع الدول الإسلامية في العراق والشام ومصر.

٢- وأما الأمر الثاني فلم يكن آنذاك ، ثمة أعداد كبيرة من المغول يعتنقون الإسلام، بينما كان من بينهم عدد كبير من النصارى الذين اعتنقوا النصرانية على المذهب النسطوري[1] الذي انتشر في آسيا الوسطى منذ زمن مبكر يرجع إلى القرن الخامس . وهذا الأمر هو الذي جعل أوروبا تحلم بإقامة تحالف مع المغول طمعًا في أن يتحولوا إلى النصرانية وفي الوقت نفسه يسهموا في حرب المسلمين واسترداد بيت المقدس[2].

وكان لويس التاسع ملك فرنسا قد أجرى اتصالات مع المغول قبل مغادرته الأراضي الفلسطينية[3] على أمل أن يحصل للصليبيين على حليف قوي يستندون إليه في صراعهم مع المسلمين. "وفي الحقيقة" يقول

---

[1] يقول هذا المذهب بأن المسيح بشر تمثلت فيه الطبيعتان الإلهية والبشرية ، ولكنهم يغلّبون الطبيعة البشرية . وعرفوا كذلك باسم أصحاب الطبيعتين .

[2] هانس أبراهارد ماير، تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة وتعليق د. عماد الدين غانم ، منشورات مجمع الفتح للجامعات (١٩٩٠) ص ٣٨٠ ـ ٣٨١.

[3] غادرها في ٢٤ أبريل ١٢٥٤م .

هانس ما يرز – " كان المغول يمثلون – خلال القرن الثالث عشر – القوة الوحيدة التي تستطيع أن تقضي على الدول الإسلامية قضاءً مبرمًا ."... وفي إطار هذه الخطط التي جرت مناقشتها بعمق في الإدارة البابوية وأوروبا حتى عام(١٣٠٠)، كان الأمر الحاسم يتجسد في أن معظم المغول ليسوا من النصارى ولا المسلمين، لكن تأثير النساطرة لديهم كان بالغاً[٢]".

وكانت أول محاولة اتصال بالمغول قد جرت في (١٢٤٥ – ١٢٤٧) حينما أرسل البابا أنوسنت الرابع الراهب الفرانسيسكاني يوحنا كاربيني إلى العاصمة المغولية قره قورم بغرض دعوة الخان الأعظم للدخول في النصرانية. ولكن الأخير دعا البابا كي يُعلن خضوعه ويكون من أتباعه. وأما المحاولة الثانية فقد تمّت على يد الراهب أندرياس في (١٢٤٩ – ١٢٥٢) الذي كان موفدًا من قبل لويس التاسع حينما كان في قبرص، وجاءت النتيجة مخيّبة للآمال ومماثلة لسابقتها. ومع ذلك، لم ييأس الملك الفرنسي وقام في عام (١٢٥٣) بإرسال الراهب وليم روبروك إلى عظيم المغول منكو خان يحمل معه عرضًا بالتحالف. ولكن منكو اشترط للدخول في الحلف أن يصبح لويس تابعًا له، وذلك وفقًا لنظرة المغول الفوقية والازدرائية للآخرين. وعلى أية حال، فحينما رجع روبروك في عام (١٢٥٥) ، كان هولاكو – شقيق منكو – يعد العدة لاحتلال الدول الإسلامية.

---

[٢] هانس ما يز ص ٣٨٢ – ٣٨٣ .

فدخل في عام (١٢٥٥) غرب آسيا ، وفي عام (١٢٥٦) قضى على قلعة آلاموت، المعقل الحصين للطائفة الإسماعيلية [٥]، وفي ١٠ فبراير (١٢٥٨) اجتاح المغول بغداد وعاثوا فيها فسادًا، وقتلوا آخر رمز للخلافة العباسية. وقام هولاكو في عامي (١٢٥٩ - ١٢٦٠) باحتلال دمشق وحلب التي منها أمر أخاه كتبغا بالتوجّه جنوبًا على رأس قسم من الجيش بمهاجمة مصر، التي كانت وقتها تحت حكم المماليك. وتمكن الجيش المملوكي بقيادة السلطان قطز والأمير الظاهر بيبرس من إنزال هزيمة ساحقة بالجيش المغولي في معركة عين جالوت الشهيرة في منطقة الجليل عام (١٢٦٠). وتُعد هذه المعركة من أهم المعارك الحاسمة في التاريخ؛ ذلك أنه تم بمقتضاها القضاء على أسطورة أن المغول شعب لا يقهر، وإيقاف تقدمهم نحو الغرب والشمال الأفريقي بصفة نهائية، وتوطد الإسلام، وتم فرض السيادة المملوكية على الشام وفلسطين، أي توحدت مصر والشام مرة أخرى.

وأما هولاكو، فقد اكتفى بإيران حيث أسس دولة الإيلخانات وصد هجمات المماليك حتى موته في عام (١٢٦٥). ولكن موت الخان الأعظم قوبيلاي أدى إلى انهيار نظام الإمبراطورية المغولية التي صار القسم الشرقي منها بوذيًا ، بينما اعتنق الايلخانات الإسلام بشكل

---

[٥] طائفة شيعية إرهابية كان لها دور تدميري وتخريبي في فترة الحروب الصليبية ، بما قامت به من اغتيالات لرموز الجهاد الإسلامي. وعُرفت عند الغرب باسم الحشاشين نظراً لتعاطيهم المخدرات قبل إقدامهم على أي عمل .

نهائي في عام (١٢٩٥)، ((وبذلك حطموا جميع الآمال التي عقدها عليهم النصارى.))[1]

إن من أهم ما ترتب على انتصار المماليك في معركة عين جالوت هو إنقاذ العالم الإسلامي من أشد المخاطر التي تعرض لها هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى صار المماليك ودولتهم أكبر قوة في الشرق الأدنى حتى ظهور العثمانيين.

وتولى الظاهر بيبرس (١٢٦٠ – ١٢٧٧) حكم المماليك في مصر عقب موقعة عين جالوت مباشرة. ويُعد بيبرس – الذي توحدت على يديه دمشق و القاهرة من جديد – من المسلمين المتحمسين الذي عقد العزم على استئصال شأفة الصليبيين من الشرق.

ومن بين التحالفات التي عقدها بيبرس للوقوف في وجه المغول والصليبيين، والذي يعد الأهم من بين تلك التحالفات، هو الحلف الدفاعي الذي عقده مع دولة المغول الذهبيةالتي كانت تحتل الجهات الجنوبية من روسيا .وترجع أهمية هذا الحلف إلى: اعتناق سلطانها برقة خان الدين الإسلامي، والذي كان في الوقت نفسه في نزاع مستمر مع دولة الإيلخانات في فارس. وقد حقق بيبرس أول انتصاراته على الحلف المكوّن من مغول فارس وأرمينيا، وأنطاكية سنة (١٢٦٦)، ولم يلبث أن تمكن من الاستيلاء على إمارة أنطاكية ذاتها في سنة (١٢٦٨) [2].

---

[1] هانس ما ير ص ٢٨٧ .

[2] هذا فضلا عن أن تجار البندقية في جهات عكا لم يكونوا مرتاحين إلى التقارب الصليبي المغولي نظرًا لأن المغول حلفاء غريمتهم جنوا

وأما مواقف الصليبيين من المغول فقد كانت متباينة ؛ ذلك أن إمارة أنطاكية دخلت في تحالف مع المغول عن طريق ملك أرمينيا التابع للمغول، وأسهمت معها في هجوم المغول على حلب ودمشق سنة ١٢٦٠.

ومن ثم نظرت مملكة عكا الصليبية إلى ذلك التحالف على أنه يشكل خطرًا على الصليبيين لأسباب عدة منها :

١- قيام أنطاكية بتغيير طقوسها الدينية الكاثوليكية بالأرمنية.

٢- أن المغول لا يعترفون بتحالف متكافئ، ولا يسمحون بوجود دولة مستقلة في جوراهم، إلا إذا قامت بتقديم فروض الولاء وإعلان التبعية لهم.

٣- لم ينظر حكام عكا بعين الرضا لسياسة هولاكو وابنه تجاه النصارى، لأن امتداد نفوذ المغول إلى الأراضي المقدسة يعني امتداد نفوذ الكنيستين النسطورية والأرثوذكسية الشرقية – (البيزنطية).

وعلى الرغم من المواقف السلبية لحكام عكا تجاه المغول، فإن السلطات المغولية في فارس كانت أكثر وعيًا في إدراك خطر المماليك على الجانبين منذ معركة عين جالوت؛ لذلك فكر أبقا Abaga (١٢٦٥ – ١٢٨٢) ابن هولاكو بشكل جدي في إيجاد حلف أوروبي مغولي ضد العدو المشترك.

وفي عام (١٢٧٠) جرت مفاوضات بين مغول فارس وحكام أوروبا عن طريق البابوية من أجل الإطباق على المماليك من الشرق والغرب؛ ذلك

Runciman, S., A History f the Crusades , The Kingdom of Acre (٣)(Cambridge , 1955) , pp.223 – 241

أن البابا كليمنت الرابع أرسل وفدًا إلى أبقا أو (أبغا) Abaga يُبلغه بقرب تشكيل حملة صليبية حاثا إياه على عقد حلف عسكري بين الطرفين. رحب أبقا بالفكرة ووعدهم بالاستجابة إلى عرضهم حال انتهاء حربه في جهات أفغانستان.

وتشكلت الحملة الصليبية المشار إليها من فرقتين الأولى من الفرنسيين بقيادة الملك لويس التاسع وتُعرف بحملة لويس الثانية أو بالحملة الصليبية الثامنة. وقد تغيرت وجهتها من الشرق إلى غزو تونس وانتهت بالفشل وهلاك لويس التاسع ومعظم جيشه.

وأما الفرقة الإنجليزية فقد قادها الأمير إدوارد في أواخر عام (١٢٧٠)؛ ونظرًا لما بلغه من أنباء حول ما حل بلويس التاسع وحملته على تونس ، أقلع مباشرة إلى جزيرة صقلية ومنها غادر إلى عكا في أوائل عام (١٢٧١).

ونظرًا لأن إدوارد كان يدرك بأنه لا قبل له بقتال المماليك منفردًا لذلك سعى إلى توحيد الصفوف الصليبية على المستوى المحلي، وإيجاد حليف عسكري من كلٍ من مغول فارس ومملكة أرمينيا. فأما ما يخص النقطة الأولى، فلم يحالفه التوفيق، بسبب انقسام الصليبيين بين البندقية وبين جنوا في الصراع الدائر بينهما ولتسابق كلا المعسكرين لتوثيق علاقاته مع مصر. وأما فيما يتعلق بالنقطة الثانية فيبدو أن التوفيق حالفه إلى حدٍ ما . ذلك أن مفاوضاته مع المغول وأرمينيا أثمرت عسكريًا: ذلك أن أبقا لم يلبث أن أوفى بوعده وقام بإرسال فرقة مكونة من عشرة آلاف فارس أسهمت في الاستيلاء على حلب ومعرة

النعمان وأفاميا عام (١٢٧١)، وفي الوقت نفسه اتفق مع ملك أرمينيا على مهاجمة مصر[1].

ولكن الانتصارات المغولية – الأرمنية لم تلبث أن تحولت إلى هزائم الأمر الذي دفع بالأمير إدوارد إلى عقد اتفاقية مع السلطان بيبرس في عام (١٢٧٢) لمدة عشر سنوات، وتضمنت الحفاظ على ما تبقى من مملكة عكا وهي الجهات الساحلية الممتدة بينها وبين صيدا.

كادت العلاقات بين مصر المملوكية ودولة مغول فارس أن تتخذ اتجاهًا إيجابيًا في عهد الخان تيقودور Tequdor (١٢٨٢ – ١٢٨٤)؛ ذلك أن هذا حاول أن يضع حدًا للحروب ضد المماليك، والعدول عن سياسة التحالف مع الغرب التي كان يتبناها أبقا، فاعتنق الإسلام، وتسمى بأحمد، وأرسل إلى سلطان مصر الناصر قلاوون يخبره بذلك ويطلب منه الدخول في تحالف. ولكنه لم يوفق في مسعاه نظرًا للمعارضة التي واجهها من ابن أخيه أراغون بن أبقا والتي انتهت بمقتله. ومن ثم استأنف مغول فارس علاقاتهم الإيجابية مع الغرب في عهد الخان أراغون (١٢٨٤ – ١٢٩١)، الذي أبدا تحمسًا شديدًا للتحالف معهم؛ ذلك أنه لم يكف لمدة لا تقل عن خمس سنوات أي من عام (١٢٨٥ وحتى ١٢٩٠) عن إرسال المندوبين إلى البابوية وإلى ملوك أوروبا يحرضهم على محاربة المسلمين

---

[1]Powick , F., King Henry III and The Lord Edward , Vol .II (Oxford , 1947) pp. 601 -2

ويحثهم على الدخول في تحالف معه للإجهاز عليهم ولكن من دون جدوى.[1]

لم تقتصر فعاليات مغول فارس على المفاوضات الدبلوماسية مع الغرب للإجهاز على المماليك، ولكنهم حاولوا في الوقت نفسه أن يتخذوا تدابير عسكرية ضدهم بالاشتراك مع سلاجقة آسيا الصغرى ودولتي أرمينيا[2] وجورجيا. ذلك أنهم انتهزوا فرصة الفوضى التي اعقبت موت بيبرس سنة (١٢٧٧) وأغاروا على عدة مدن سورية. ولكن لم تلبث أن انقلبت انتصاراتهم إلى هزائم على إثر توحيد المماليك جهودهم ونبذهم خلافاتهم باتفاقهم على سلطنة قلاوون (١٢٧٩- ١٢٩٠). ومع ذلك فقد عاود المغول الكرة سنة (١٢٨١) وهاجموا الأراضي السورية من الشرق والغرب، ولكن الجيوش الإسلامية اشتبكت معهم في معركة حاسمة بالقرب من حمص انتهت بهزيمتهم واندحارهم هم وحلفائهم وانسحابهم إلى ما وراء الفرات[3].

لقد شرع قلاوون منذ توليه السلطنة في استرداد المناطق التي بحوزة الصليبيين معتمداً سبيل الدبلوماسية والحرب: ذلك أنه لعب دوراً كبيراً في إثارة الخلافات بين القادة الصليبيين الذين انقسم موقفهم حيال المماليك إلى فريقين إذ تألف الفريق الأول من مملكة عكا

---

[1]Budge , E., The Monks of Kublai Khans , Imperor of China (London , 1928) pp , 72-75,
[2]Atiya,A, Crusade , Commerce and Culture , (London , 1962) pp.138-39.
[3]Glubb , J., The Lost Centuries , 1145-1153 (London , 1967) pp. 305-8

وفرسان المعبد الذين آثروا التعاون مع المماليك. بينما تآلف الفريق الآخر من إمارة طرابلس وفرسان الاسبتارية الذين آثروا التعاون مع المغول.

لقد عمل قلاوون على تعميق الخلافات بين الصليبيين وحوّلها لصالحه: ذلك أنه طلب من السلطات في إمارة عكا تجديد الاتفاقية التي كان إدوارد قد عقدها وانتهت مدتها في سنة (١٢٨٣)، والتي شملت المنطقة الساحلية باستثناء بيروت وطرابلس. وقد هدف قلاوون من هذا الإجراء السيطرة على المناطق الاستراتيجية التي تحتلها الاسبتارية حلفاء المغول، فاستولى على المرقب في سنة (١٢٨٥) وعلى اللاذقية في سنة (١٢٨٧)، في الوقت الذي هاجمت فيه أساطيل البندقية الجنويين وحلفاؤهم في عكا. وأما إمارة طرابلس فقد واتته الفرصة بعد موت بوهيموند السابع في سنة (١٢٨٧)؛ ذلك أن أهلها انقسموا بين من يرغب في طلب مساعدة الجنويين وبين من رغب في مساعدة المماليك وقاموا بالفعل بالاتصال بقلاوون وحذروه من وقوعها في يد الجنويين وما يمثله ذلك من خطر على مصر. لذلك لم يتوان قلاوون في استغلال هذا الانقسام في الرأي وانقضّ على طرابلس واستولى عليها في أبريل سنة (١٢٨٩).

سقوط عكا وموقف الغرب:

يُعد السبب المباشر الذي دفع قلاوون إلى إلغاء اتفاقية الهدنة السابقة مع حكومة عكا هو عجز السلطات في عكا وقف الأعمال الفوضوية التي كانت تقوم بها الفرقة الإيطالية. وهذه الفرقة هي جزء من الحملة الصليبية التي دعت إليها البندقية عقب استيلاء قلاوون على

طرابلس وقيامه بعقد اتفاقية تجارية مع غريمتها جنوا. وقد ضمت هذه الفرقة جموعاً من الفقراء اللومبارديين، كما أسهم فيها ملك أراغون الإسباني بعدد من السفن. وما أن وصلت هذه الفرقة عكا في أغسطس سنة (١٢٩٠) حتى شرعت في مهاجمة القرى الإسلامية الواقعة بضواحي عكا على الرغم من معارضة السلطات في عكا. ولم تقف أعمال العنف لهؤلاء الإيطاليين عند هذا الحد، ذلك أنهم افتعلوا حادثة في المدينة نفسها قاموا على إثرها بمهاجمة المسلمين وقتلوا كثيرا منهم. طلب قلاوون من السلطات في عكا تسليم المذنبين ولكنها رفضت، فقام على إثر ذلك بإلغاء الهدنة وتقدم للاستيلاء على المدينة، ولكن الموت فاجأه، فقرر ابنه الأشرف خليل (١٢٩٠- ١٢٩٣) تأجيل المشروع إلى السنة المقبلة.

وحاولت حكومة عكا الاعتذار عن تلك الأعمال المشينة التي ارتكبتها الفرقة الإيطالية والتفاوض لتجديد الهدنة، ولكن من دون جدوى: إذ أمر الأشرف بحبس الوفد الصليبي [1]، وتقدم نحو المدينة التي بدأ في حصارها في اليوم الخامس من أبريل سنة (١٢٩١)، وتمكن من اقتحامها في الثامن عشر من مايو. وقد سيطر المسلمون على كافة المراكز الصليبية في الأراضي المقدسة في الفترة الممتدة من ٢٨ مايو وهو تاريخ سقوط قلعة عكا، إلى ١٥ أغسطس سنة (١٢٩١)[2].

---

[1] Setton, Wolff and Hazard ., A History of The Crusades , Vol. II (Phila ., 1962) p.593.

[2] Runciman , op .cit ., 431 – 32.

لقد أحدث سقوط عكا دوياً كبيراً وحزناً عميقاً في الأوساط الأوروبية الدينية والسياسية، واقتصر الأمر على ذلك. إذ لم يترتب عليه أي ردة فعل عسكرية؛ لأن البابوية وحكام أوروبا لم يكونوا في وضع يمكنّهم من استعادة الأراضي المقدسة عن طريق القوة.

نتائج الحروب الصليبية

ثمة عدد من الآراء المتنوعة في هذا الشأن لعدد من المهتمين بتاريخ الحروب الصليبية سنكتفي بذكر بعضها.

من المعروف أن الحملات الصليبية جرى توجيهها من قبل البابوية والكنيسة اللاتينية متخذة الدين ستاراً لها لإنقاذ الأماكن المقدسة في فلسطين والمشرق من أيدي المسلمين. ولكن كان لديها – في الواقع – أهداف أخرى يأتي في مقدمتها نشر النصرانية والسيطرة على النصارى كافة، والعمل على توحيد الكنيستين الشرقية والغربية، وفرض سيادتها على حكام أوربا الغربية. ولما انتهت الحروب الصليبية والوجود الصليبي رسمياً بسقوط مدينة عكا – آخر معقل لهم – في سنة (١٢٩١)، أضحى العالم انصراني الشرقي خاضعاً للعرب المسلمين. "ويمكن القول أن من أواخر ثمار الحركة الصليبية، ما حدث من سقوط جزيرة رودس بأيدي الأتراك العثمانيين سنة (١٥٢٣)، وجزيرة قبرص سنة (١٥٧٠)، ثم استيلاء البنادقة عليها آخر الأمر. ولم يتبق للغزاة من الغرب سوى بضع جزائر يونانية ظل بقاؤها في يد البنادقة محفوفاً بالمخاطر".

"على أنه وفقاً للمنظور التاريخي" – يستطرد ستيفن رانسمان قائلاً – "ليست الحركة الصليبية بأكملها سوى فشلٍ ذريعٍ؛ فما صادفته الحملة الصليبية الأولى من نجاح يفوق حد الإعجاز أدى إلى قيام إمارات صليبية في الشرق الأدنى، ولما تراءى أن كل شئ قد ضاع، لم يُبق عليها لمدة قرن آخر من الزمان سوى ما بذلته الحملة الصليبية الثالثة من جهد. والواقع أن فترة الحروب الصليبية تُعد من أهم المراحل في تاريخ المدنية الغربية؛ فحينما بدأت، كانت أوربا على عتبة الخروج من مرحلة غارات الشماليين الطويلة الأمد والتي يُطلق عليها – أحياناً – "العصور المظلمة." فلما انتهت كانت براعم ما نطلق عليه النهضة الأوروبية تأخذ في الظهور، على الرغم من أننا لا نستطيع أن نخص الصليبيين أنفسهم بدور مباشر في هذا التطور؛ إذ لم يكن للحروب الصليبية تأثير فيما ساد الغرب من أمن وطمأنينة هيّا للتجّار والطلاب فرصة التنقل كيفما شاءوا، فأضحى من اليسير فعلاً الوصول إلى ما أختزنه العالم الإسلامي من العلوم عن طريق إسبانيا، بل إنه جرى طوال فترة الحروب الصليبية أن كانت صقلية، لا بلاد الشرق الصليبي، مركز التقاء للحضارة العربية الإسلامية واليونانية والغربية؛ فالشرق الصليبي لم يُضف شيئاً يُذكر من الناحية الفكرية العقلية، لأنه كان يتألف في أغلبه من العساكر والتجار، ومن ثم لم يكن صالحاً لأن يخلق أو يقيم مستوى فكرياً رفيعاً. إضافة إلى أن ما نشب من حروب وما ساد ذلك المجتمع من متاعب مالية منع قيام نظام لإنشاء مراكز فعلية للدراسة، حيث يجري ارتشاف علم الوطنيين والمجاورين . وترتب على انعدام قيام هذه

المراكز، أن ما أسهمت به الحروب الصليبية من ثقافة لغرب أوربا كان بالغ الضآلة ومُخيباً للرجاء.

وباستثناء ما حدث من اتساع السلطان الروحي لروما (البابوية)، فإن أكبر ما جناه العالم النصراني في الغرب من الحروب الصليبية من فائدة، لم تكن إيجابية؛ فحينما بدأت تلك الحروب كان المركزان الرئيسيان للمدنية بالشرق هي القسطنطينية والقاهرة، ولما انتهت، نقلت المدنية مركزها إلى إيطاليا والممالك الناشئة في الغرب. على أن غارات المغول كانت أشَد تدميراً للمدنية العربية، ومع ذلك لا يصح إلقاء اللوم على الحروب الصليبية في قدومهم. ولكن يمكننا القول أنه لولا الحروب الصليبية لأضحى العرب أقدر على مواجهة المغول والتصدي لاعتداءاتهم؛ ذلك أن دولة "الفرنج" الدخيلة لم تكن سوى جُرحٍ فاسدٍ لم ينساه المسلمون، وطالما ألهتهم تلك الدولة فلم يكن بوسعهم أن يركزوا جهودهم على المشاكل الأخرى مطلقاً.

كما يضع رانسيمان اللوم على الصليبيين في تخريب العالم النصراني الشرقي المتمثل في الإمبراطورية البيزنطية التي على الرغم من تجاوزها لمحنة عام (١٢٠٤) الناجمة عن الحملة الصليبية الرابعة، وازدهارها الفني والفكري خلال القرن الرابع عشر وأوائل الخامس عشر، فإن بنيانها السياسي لم يكن بنجوة من الخطر وذلك بسبب تكالب قوى الغرب ودول البلقان المجاورة عليها الأمر الذي أنهكها وأضعف قواها وجعلها تسقط في أيدي المسلمين آخر الأمر.

وفيما كان بين الشرق والغرب من حلقة طويلة من التلاحم والتفاعل المتبادل، الذي نبتت منه مدنيتنا، لم تكن الحروب الصليبية إلا فصلاً مدمراً ومحزناً. وكلما تطلع المؤرخ إلى الوراء عبر القرون إلى قصة بطولتها، لابد أن يلقى أن إعجابه قد حجبه الأسى والحزن لما يحمله من شاهد على قيود الطبيعة البشرية؛ فلقد توافرت الشجاعة، وتضاءل الشرف، واشتد الإيمان وضعف الفهم والإدراك؛ فالمثل العليا، أفسدتها القسوة والفهم، كما أن المغامرة والتحمل دمرهما الاستقامة الذاتية العمياء الضيقة، بل إن الحرب المقدسة ذاتها لم تعد أكثر من إجراء طويل من التعصب باسم الله، الذي ليس سوى جُرم في حق الروح المقدس"[٥].

وأما إرنست باركر فيقول "يصح اعتبار أن الحروب الصليبية فشلت فشلاً ذريعاً في ناحية جوهرية، ذلك أن هذه الحروب لم تنته باحتلال نصارى الغرب للشرق، بل انتهت باستيلاء الشرق الإسلامي على الغرب النصراني.

على أنه ينبغي أن ننظر إلى الحروب الصليبية على أنها فصل من فصول تاريخ المدنية في الغرب، لا على أنها توسع وامتداد للسيطرة والديانة الغربية في الشرق. وما حدث من انهيار للنظام الإقطاعي، ونمو المدن وتطور الحركة المدرسية، إنما ترجع كلها إلى الحروب الصليبية، على حين أنها في الواقع لم تكن ناجمة عن الحروب الصليبية، بل كانت

---

(٥) ستين رانسيمان؛ تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، نقله إلى العربية السيد الباز العريني، دار الثقافة (بيروت، ١٩٦٩م)، ص ٧٨١ – ٧٩٧.

مقترنة بها ومصاحبة لها. والخلاصة أنه يصح التسليم بأن الحروب الصليبية أسهمت في تفكك النظام الإقطاعي؛ بجعل الملكية حرة، سهلة الانتقال، وبإضعاف قوة الألقاب، وساعدة أيضاً على نمو المدن بما حدث من ازدياد حركة التجارة وضخامتها، وزادت في نمو الحركة المدرسية بما هيأته من اتصال الغرب بتفكير الشرق. وعلى نطاق أضيق، فإن أول نتائج الحروب الصليبية هي أنها فتحت المجال أمام التخلص من الأبناء الصغار، وذلك وفقاً لما كان سائداً الغرب من نظام توريث الابن الأكبر. من ثم لم تكن تلك الحروب إلا محاولات للتوسع الإقطاعي، وطبقاً لذلك أدت إلى ظهور عدد من المستعمرات: مملكة بيت المقدس، مملكة قبرص، الإمبراطورية اللاتينية في القسطنطينية، وترتب عليها أيضاً ظهور عدد من "الهيئات المشروعة"، مثال تلك الطوائف الدينية العسكرية الثلاث، (الاسبتّارية، الداوية، الفرسان التيوتون)، التي على الرغم من أنها بدأت على أنها هيئات خيرية، فإنها تطورت إلى هيئات حربية، ثم تطورت مرة أخرى من هيئات حربية، إلى جماعات تجارية: فامتلكت المصارف (البنوك) والأساطيل، والأراضي الشاسعة.

وأما النتيجة الثانية، فإن الحروب الصليبية تمثل ما بذلته التجارة الغربية من محاولات، لأن تكتشف ما يؤدي إلى ثروة الشرق من طرق جديدة بالغة السهولة وترتب على هذه التجارة التي شقت طريقها إلى أقصى الشرق، وترتب أيضاً على البعثات التبشيرية في آسيا التي كانت مصاحبة للحروب الصليبية، وتُعد من آثارها، أن ظهر في القرن الثالث عشر، النتيجة الثالثة الكبيرة من نتائج الحروب الصليبية – وهي

اكتشاف وسط آسيا، وازدياد معرفتنا الجغرافية. فالاستعمار والتجارة والجغرافية، كل هذه الأمور الثلاثة شديدة الارتباط بتاريخ الحروب الصليبية. وأن ما حدث من تطور في فن الحرب، ونمو نظام الضرائب، يُعدان من الأمور التي تدين أوروبا العصور الوسطى بها للحروب الصليبية أيضاً، كذلك تعلم الصليبيون، بفضل اتصالهم بالبيزنطيين من جهة، وبسبب حروبهم مع المسلمين من جهة أخرى، طرقاً جديدة لتشييد الاستحكامات الحربية وبناء القلاع ومهاجمتها

وما هو معروف عند المسلمين من أعمال النقابين للأسوار واستعمال أدوات الحصار كالمنجنيق، واستخدام "النيران" على هيئة قذائف، تعلمها الصليبيون منهم

على أن أوروبا بعد الحروب الصليبية، اختلفت في نواحي عديدة عن أوروبا في القرن الحادي عشر؛ فأولاً: حدثت تغييرات سياسية كثيرة، خضعت إلى حد كبير لنفوذ وسلطان الحروب الصليبية. ذلك أنه غلب على الحروب الصليبية الصبغة الفرنسية، من ثم فإنها أسهمت في رفع شأن فرنسا إلى حد كبير، وزادت من هيبتها، حتى أضحت في القرن الثالث عشر أكبر دولة في أوروبا؛ ذلك أن فرنسا هي التي استعمرت الشرق الأدنى، وأن اللغة الفرنسية هي التي انتشر استعمالها هناك، ومازال ملحوظاً حتى اليوم النتائج التي ترتبت على الاتصال قديماً بالشرق واستمرار هذا الاتصال. وأما الدول الكبرى الأخرى مثل انكلترا، وألمانيا فلم يصبها سوى حظ ضئيل من التغيير نتيجة الحروب الصليبية؛ لكن ألمانيا امتدت نحو الشرق بفضل الفرسان التيوتون ونمت

البابوية وتطورت بتأثير الحروب الصليبية: فالبابوات هم الذين بشّروا بالحروب الصليبية ودعوا لها، وهم الذين قاموا بالإنفاق عليها، وهم الذين أرسلوا مندوبين عنهم ليتولوا قيادتها. واتخذ البابوات من الحروب الصليبية وسيلة لعزل الأباطرة في الغرب، وخلعهم من زعامة العالم، وذلك يرجع إلى أن الباباوات استطاعوا عن طريق الحروب الصليبية أن يوجّهوا النصرانية في أوروبا إلى ما وضعوه لأنفسهم من سياسة خارجية دون استشارة الإمبراطور ومع أن الحروب الصليبية رفعت من شأن البابوية، فإنها أسهمت في إفسادها أيضاً: ذلك أنها غدت أداة في يدها استخدمتها في كل أعمالها السيئة: فأثارت الحرب الصليبية حين لم يكن ثمة ما يدعو إلى حرب صليبية.

وإذا ما انتقلنا من مجال السياسة إلى تاريخ المدنية والحضارة، فإننا نجد أن آثار الحروب الصليبية ازدادت عمقاً: ذلك أنها أخرجت الناس مما درج عليه أسلافهم من عادة التزام الوطن، كيما يسلكوا سبلاً جديدة، ويشاهدوا أشياءً جديدة، ويستمعوا إلى أفكار جديدة، الأمر الذي نتج عنهاالاتساع في التفكير والأفق العقلي وأن ما نجم عن الحروب الصليبية من المعرفة والخبرة الجديدة هيأ مادة جديدة للتفكير العلمي والخيال الشعري في آن واحد: فلم يحدث أن ازدادت دراسة الجغرافية وحسب، بل تولد عن الحروب الصليبية حافز قوي لكتابة التاريخ أيضاً، فنتج عنها – إلى جانب عدد كبير من المؤلفات التاريخية – أعظم مؤلف في تاريخ العصور الوسطى، ألا هو كتاب وليم الصوري المعروف باسم تاريخ "ما وراء البحار" Historia Transmairina . و

إلى جانب هذه الأشياء العظيمة، التي تبدو قليلة لأنها قليلة فعلاً، ما جلبته الحروب الصليبية إلى أوروبا من أشياء بالغة الأهمية، مثل النباتات الجديدة والثمار الجديدة، والصناعات الجديدة والألوان الجديدة والأزياء الحديثة. فالسكر والذرة، والليمون والبطيخ، والقطن والحرير الموصلي والدمقس، والأرجوان، واستخدام المساحيق والمرايا الزجاجية، واتخاذ المسابح، كل هذه الأشياء إنما انتقلت إلى أوروبا العصور الوسطى من الشرق نتيجة الحروب الصليبية[٥].

وقد ورد في دائرة المعارف البريطانية:

لقد تغيّر بناء المجتمع الأوروبي بالكامل خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وقد حدث في وقت من الأوقات أن نُسب هذا التغيير في معظمه إلى الحروب الصليبية. ولكن المؤرخين – الآن – ينزعون إلى النظر إلى تلك الحروب على أنها أحد العناصر المهمة في تطور أوروبا.

❖الأثر الاقتصادي والاجتماعي على أوروبا :

فعلى سبيل المثال، ربما كان رحيل العناصر المشاغبة مع الحملة الصليبية الأولى من العوامل التي ساعدت الملك الفرنسي وكبار الإقطاعيين في الحفاظ على النظام وتوسيع سلطاتهم. كذلك يمكن اقتفاء أثر اختفاء الأسر القديمة وظهور أخرى جديدة بشكل جزئي إلى الحرب الصليبية، ولكن التعميم في هذا الشأن يجب أن يكون بحذر. كما يجب أن نأخذ في الحسبان أنه في الوقت الذي قام فيه بعض

---

[٥] إرنست باركر؛ الحروب الصليبية، نقله إلى العربية السيد الباز العريني، دار النهضة العربية، (بيروت، ١٩٦٧) ص ١٤٢-١٥٢.

المشاركين في الحروب الصليبية ببيع ممتلكاتهم أو رهنها للمؤسسات الكنيسة في أغلب الأحيان، فإن آخرين تنازلوا عليها لأقاربهم. وعلى الرغم من أن الخسائر في الأرواح كانت جسيمة، فإن كثيرين رجعوا إلى أوطانهم.

إن الأقسام التي تحصلت عليها المدن الإيطالية التجارية (جنوا، وبيزا، والبندقية) في المدن المهمة في هيئة مكافآت على إسهامها في السيطرة على تلك المدن، مكنتهم من توسيع تجارتهم مع العالم الإسلامي وقادت إلى تأسيس مراكز تجارية فيما وراء حدود الصليبيين، واستمر بعضها في الوجود حتى بعد عام (١٢٩١) بكثير. وقد أسهمت وسائل النقل التي وفرتها تلك المدن للصليبيين في تطوير بناء السفن وتقنياتها. كما صارت التسهيلات المصرفية الإيطالية أمراً لابد منه بالنسبة للملوك والبابوات. وفضلاً عن ذلك، فقد استفادالكتالونيون Catalans الإسبان والبروفنساليون Provençals من فرنسا كثيراً، وبشكل غير مباشر، استفادت أوروبا كلها. هذا بالإضافة إلى أن الذين رجعوا من الصليبيين أحضروا معهم مذاقات ونكهات جديدة الأمر الذي أدى إلى زيادة الطلب على البهارات، والمنسوجات الشرقية وما شابه ذلك. ولكن مثل هذه الطلبات يمكن نسبتها إلى ما طرأ عل أوروبا نفسها من تغير في نمط الحياة ونمو تجاري.

❖ الأثـــر الدينـــي :

لقد أطلقت البابوية الحملة الصليبية الأولى، ومن ثم ظلت الحروب الصليبية محط اهتمام دائم؛ ذلك أنه في الوقت الذي عززت فيه النجاحات الأولية موقف البابوية، فإن الإخفاقات الأخيرة أدت إلى العكس من ذلك، وإلى انحراف الدعاية البابوية وتحويلها إلى حرب الهراطقة أو ضد أي إمبراطور يرتفع صوته بانتقادها. وكذلك الحال كان مع جمع الضرائب على الدخول الإكليركية (دخول رجال الكنيسة)، مع ملاحظة أن التمويل البابوي للحملات الصليبية كان له دور مهم في نمو اقتصاد أوروبا.

وإن تأسيس الأخويات الدينية الفرنشسكانية Franciscan والدومنيكانية Dominican في الشرق خلال القرن الثالث عشر ساعد كثيراً في اتساع عملية التبشير في مناطق الصليبيين وفيما وراءه. وقد وفرّت المراسيم البابوية تسهيلات خاصة للمبشرين النصارى، وفي الوقت ذاته قام البابوات بإرسال خطابات إلى الحكام في الشرق يطلبون الإذن للسماح لأولئك الرهبان بإداء عملهم.

وغالباً ما يرافق أولئك الرهبان التجار الإيطاليون، وبما أن الماغول كانوا – بصفة عامة- متسامحين بشان الدعاية الدينية، فقد تم تأسيس إرساليات في إيران، وفي أعماق آسيا، وحتى في الصين. ولكن، وبما أن الشريعة الإسلامية تمنع بشكل صارم مثل هذه الدعاية (التبشير بالنصرانية) وتعاقب المرتدين بالموت، فإن عدد المتحولين عن الإسلام كان قليلاً. وفي القرن الرابع عشر سُمح للرهبان الفرنشسكان

أخيراً بالبقاء في فلسطين فقط بوصفهم متعهدي الأماكن المقدسة، وليس كمبشرين أو دعاة.

ويبدو أن الشرق اللاتيني لم يكن من قنوات انتقال العلوم العربية والفلسفية إلى الغرب كما هو الحال بالنسبة لإسبانيا وجزيرة صقلية. ولكن الحقبة الصليبية كان لها أثر واضح وجلي على تطور الأدب التاريخي الغربي ومكوناته. ذلك أنه، منذ البداية ثمة غزارة في تاريخ الأحداث وعرضها وفق تسلسلها الزمني، وتقارير لشهود عيان، وفي الأخير ثمة مؤلفات تاريخية أكثر طموحاً في الشعر والنثر، سواء باللغة العامية أم اللاتينية[٥].

---

[٥] دائرة المعارف البريطانية، المجلد ٥، جامعة شيكاغو، (١٩٧٩) ص ٣١٠.

obeikandl.com

الملاحق

obeikandl.com

obeikandl.com

الملاحق

THE SPEECH OF URBAN II AT THE COUNCIL OF CLERMONT, 1095. FULCHER OF CHARTRE

In 1094 or 1095, Alexius, the Greek emperor, sent to the pope, Urban II, and asked for aid form the west against the Turks, who had taken nearly all of Asia Minor form him. At the council of Clermont Urban addressed a great crowd and urged all to the aid of the Greeks and to recover Palestine form the rule of the Mohammedans. The acts of the council have not been preserved, but we have four accounts of the speech of Urban which were written by men who were present and heard him. We give here the most important of these accounts. The interest of the speech lies in the fact that it gave the impulse which started the crusading movement

"Most beloved brethren: Urged by necessity, I, Urban, by the permission of God chief bishop and prelate over the whole world, have come into these parts as an ambassador which a divine admonition to you, the servants of God, I hoped to find you as faithful and as zealous in the service of God as I had supposed you to be. But if there is in you any deformity or crookedness contrary to God's law, with divine help I will do my best to remove it. For God has put you as stewards over his family to minister to

it. Happy indeed will you be if he finds you faithful in your stewardship. You are called shepherds; see that you do not act as hirelings. But be true shepherds, with your crooks always in your hands. Do not go to sleep, but guard on all sides the flock committed to you. For if through your carelessness or negligence a wolf carries away one of your sheep, you will surely lose the reward laid up for you with God. And after you have been bitterly scourged with remorse for your faults, you will be fiercely overwhelmed in hell, the abode of death. For according to the gospel you are the salt of the earth (Mat.: 13) But if you fall short in your duty, how, it may be asked, can it be salted? O how great the need of salting It is indeed necessary for you to correct with the salt of wisdom this foolish people which is so devoted to the pleasures of this world, lest the Lord, when He may wish to speak to them, find them putrefied by their sins unsalted and stinking. For if He shall find worms, that is, sins, in them. because you have been negligent in your duty, He will command them as worthless to be thrown into the abyss of unclean things. And because you cannot restore to Him His great loss, He will surely condemn you and drive you from His loving presence. But the man who applies this salt should be prudent, modest, learned, peaceable, watchful, pious, just, equitable, and pure. For how can the ignorant teach others? How can the licentious make others modest? And how can

the impure make others pure? If anyone hates peace, how can he make others peaceable? Or if anyone has soiled his hands with baseness, how can he cleanse the impurities of another? we read also that if the blind lead the blind both will fall into the ditch (Matt. 15:14). But first correct your-selves, in order that, free from blame, you may be able to correct those who are subject to you. If you wish to be friends of God, gladly do the things which you know will please Him. You must especially let all matters that pertain to the church be controlled by the law of the church. And be careful that simony does not take root among you, lest both those who buy and those who sell (church offices) be beaten with the scourges of the Lord through narrow streets and driven into the place of destruction and confusion. Keep the church and the clergy in all its grades entirely free from the secular power. See that the tithes that belong to God are faithfully paid from all the produce of the land; let them not be sold or withheld. If anyone seizes a bishop let him be treated as an outlaw. If anyone seizes or robs monks, or clergymen, or nuns, or their servants, or pilgrims, or merchants, let him be anathema (that is, cursed). Let robbers and incendiaries and all their accomplices be expelled from the church and anathematized. If a man who does not give a part of his goods as alms is punished with the damnation of hell, how should he be

punished who robs another of his goods ? For this it happened to the rich man in the gospel (Luke 16:19); for he was not punished because he had stolen the goods of another, but because he had not used well the things which were his.

« You have seen for a long time the great disorder in the world caused by these crimes. It is so bad in some of your provinces, I am told, and you are so weak in the administration of justice, that one can hardly go along the road by day or night without being attacked by robbers; and whether at home or abroad, one is in danger of being despoiled either by force or fraud. Therefore, it is necessary to reenact the truce, as it is commonly called, which was proclaimed a long time ago by our holy fathers. I exhort and demand that you, each, try hard to have the truce kept in your diocese. And if anyone shall be led by his cupidity or arrogance to break this truce, by the authority of God and with the sanction of this council he shall be anathematized».

After these and various other matters had been attended to, all who were present, clergy and people, gave thanks to God and agreed to the pope's proposition. They all faithfully promised to keep the decrees. Then the pope said that in another part of the world Christianity was suffering from a state of affairs that was worse than the one just mentioned. He continued:

« Although, O sons of God, you have promised more firmly than ever to keep the peace among yourselves and to preserve the rights of the church, there remains still an important work for you to do. Freshly quickened by the divine correction, you must apply the strength of your righteousness to another matter which concerns you as well as God. For your brethren who live in the east are in urgent need of your help, and you must hasten to give them the aid which has often been promised them. For, as the most of you have heard, the Turks and Arabs have attacked them and have conquered the of Romania (the Greek empire) as far west as the shore of the Mediterranean and the Hellespont, which is called the Arm of St. George. They have occupied more and more of the lands of those Christians, and have overcome them in seven battles. They have killed and captured many, and have destroyed the churches and devastated the empire. If you permit them to continue thus for a while with impunity, the faithful of God will be much more widely attacked by them. On this account I, or rather the Lord, beseech you as Christ's heralds to publish this everywhere and to persuade all people of whatever rank, foot-soldiers and knights, poor and rich, to carry aid promptly to those Christians and to destroy that vile race form the lands of our friends. I say this to those who are present, it is meant also for those who are absent. Moreover, Christ commands it.

All who die by the way, whether by land or by sea, or in battle against the pagans, shall have immediate remission of sins. This I grant them through the power of God with which I am invested. O what a disgrace if such a despised and base race, which worships demons, should conquer a people which has the faith of omnipotent God and is made glorious with the name of Christ ! With what reproaches will the Lord overwhelm us if you do not aid those who, with us, profess the Christian religion ! Let those who have been accustomed unjustly to wage private warfare against the faithful now go against the infidels and end with victory this war which should have been begun long ago. Let those who, for a long time, have been robbers, now become knights. Let those who have been fighting against their brothers and relatives now fight in a proper way against the barbarians. Let those who have been serving as mercenaries for small pay now obtain the eternal reward. Let those who have been wearing themselves out in both body and soul now work for a double honor. Behold ! on this side will be the sorrowful and poor, on that, the rich; on this side, the enemies of the Lord, on that, his friends. Let those who go not put off the journey, but rent their lands and collect money for their expenses, and as soon as winter is over and spring comes, let them eagerly set out on the way with God as their guide».

ترجمة لخطاب البابا أوربان الثاني في عام ١٠٩٥م كما أورده فوشيه الشارتري Fulcher of Chartres

- ((أيها الإخوة الأحباء : من واقع الضرورة الملحة ، أتيتكم أنا أوربان ، بإذن الله الحبر الأعظم للعالم أجمع ، نذيرًا من العناية الإلهية ، يا خدم الله . وإنني لآمل أن أجدكم مؤمنين صالحين ومتحمسين لخدمة الله كما توقعتكم أن تكونوا.
- ولكن إذا ثمة منحرفًا أو مخادعًا بينكم بعيدًا عن قانون الله المتمثل في التعقل والعدل ، فسأحاول بعون الله جهدي أن أُقوِّم اعوجاجه . لأن الله قد جعلكم وكلاء على بيته (عائلته) ليرى كيف تديرونه . وستكون سعداء ، وستحل عليكم بركته إذا ما وجدكم أمناء فيما أوكل إليكم .
- إنكم تُسمّون رعاة ؛ فلا تتصرفوا كالأجراء ، كونوا رعاة حقيقيين واحملوا عصيّكم بأيديكم دائمًا ، ولا تغفلوا ، واحرسوا من جميع الجهات القطيع الذي أوكل إليكم .
- لأنه إذا ما خطف الذئب – بسبب إهمالكم وتقصيركم – أحد خرافكم ، فإنكم لن تخسروا ما أعده الله لكم فحسب ، بل ستلقون في الجحيم المقيم بعد أن تكونوا قد تعرضتم للتقريع الشديد بواسطة عصا الجلاد .
- وكما ورد في الكتاب المقدس "أنتم ملح الأرض" (متّى ٥ – ١٣) . ولكن إذا فشلتم في واجبكم ، فكيف ، ربما نتساءل – سيتم التمليح ؟ آه كم هي عظيمة الحاجة إلى التمليح ! ذلك أنه عليكم أن تقوّموا

بملح حكمتكم أولئك الحمقى الذين يتكالبون على ملذات هذه الدنيا، وإلا فإن الله سيجدهم - في حالة ما إذا رغب في الكلام معهم - متعفنين بسبب خطاياهم وذنوبهم، ومقززين ومفتقرين إلى ملح الحكمة.

• ذلك أنه إذا وُجد دود فيكم - أي خطايا وذنوب - بسبب تقاعسكم وإهمالكم في القيام بواجباتكم، فسيأمر بطرحكم كتافهين لا قيمة لكم في قرارة جهنم. وبما أنكم لن يكون بمقدوركم أن تعوّضوه خسارته الجسيمة، فإنه بكل تأكيد سيلعنكم وسيقصيكم من حضرته ويحرمكم محبته.

• ولكن الإنسان الذي يستعمل ملح الحكمة لابد أن يكون حكيمًا، بعيد النظر، متواضعًا، عليمًا، محبًا للسلام، يقظًا، تقيًا، عادلاً، منصفًا وطاهرًا. لأنه كيف يستطيع الجاهل تعليم غيره؟ كيف يمكن للفاسق أن يجعل غيره متواضعًا؟ وكيف يستطيع النجس أن يجعل غيره طاهرًا؟ وإذا كان المرء يكره السلام، فكيف له أن يجعل غيره يحب السلام؟ أو إذا ما تلوثت يدا امرئ بخسة أو حقارة، فكيف له أن ينظّف قذارة الغير؟ ذلك أنه ورد في الكتاب أيضًا "إذا قاد الأعمى نظيره فسيسقطان في الحفرة" (متى ١٤ : ١٥).

• ولكن أصلحوا من أنفسكم أولاً، لكي يتسنى لكم - وأنتم قد حررتم أنفسكم من اللوم والتأنيب - إمكانية إصلاح أولئك الذين هم تحت وصايتكم وتابعين لكم.

• وإذا ما رغبتم أن تكونوا أحبابًا لله ، فاعملوا عن طيب خاطر الأشياء التي تعرفون أنها سترضيه .

• ويجب ، وبشكل خاص ، أن تتركوا كل الأشياء التي تتعلق بالكنيسة تُحكم بواسطة قانون الكنيسة ، وانتبهوا وكونوا حذرين لألا تتجذر فيما بينكم المتاجرة بالمناصب الدينية ، خشية أن الذين يشترون وظائف الكنيسة والذين يبيعونها سيتعرضون للعقاب بسوط الله عبر حارات ضيّقة ، ويقادون إلى مكان الهلاك والفوضى .

• وحافظوا على الكنيسة ورجالها بكل مراتبهم أحرارًا بالكامل ومستقلين عن السلطة العلمانية .

• وتأكدوا أن تُدفع الأعشار التي تخص الله (زكاة المحاصيل) من كل ما تنتجه الأرض من خيرات بأمانة تامة ؛ فلا تُباع أو تُستبقى .

• وإذا قام أي أحد بحجز أسقف عاملوه كمجرم وخارج عن القانون .

• وإذا قام أي شخص بخطف أو سرقة رهبان ، أو رجال الدين ، أو راهبات أو خدمهم ، أو حجاج ، أو تجار فقد وقعت عليه اللعنة والحرم الكنيسي . أي خارج جماعة المؤمنين .

• دع اللعنة والحرمان من الكنيسة تحل على اللصوص وممتهني الحرائق وكل من يشترك معهم ويمد لهم يد العون .

• وإذا امتنع شخص عن إعطاء جزء مما يمتلك من سلع ومدخرات في هيئة زكاة فدعه يعاقب بلعنة الجحيم ، وكيف يُعاقب الذي يسرق مكتسبات وأموال غيره ؟ وذاك ما حصل للرجل الغني كما في الكتاب

المقدس (لوقا ١٦ : ١٩): ((فهو لم يُعاقب لأنه سرق أموال الآخر ، ولكن لأنه لم يُحسن استخدام الأشياء التي كان يمتلكها)) .

• " لقد رأيتم – ولمدة طويلة – ما حل بالعالم من إخلال بالأمن والنظام تسببت فيه هذه الجرائم . وإن الأمر في غاية السوء في بعض من مقاطعاتكم – على حد علمي – وأنكم على درجة كبيرة من الضعف وعدم المقدرة في إحلال العدل ، ذلك أنه صار من الصعب على الفرد أن يسافر عبر الطرقات نهارًا أو ليلاً من دون أن يتعرض للهجوم من اللصوص ، وسواء أكان الفرد في داخل بيته أو في خارجه فإنه معّرض لخطر السلب والنهب إما بالقوة أو عن طريق الاحتيال .

• ومن ثم ، فإنه يتحتم عليكم تجديد العمل " بهدنة الله " والتي أقرّها آباؤنا المقدسون منذ زمن طويل ، وإنني أحض وأطلب من كل واحد منكم أن يبذل قصارى جهده في تنفيذها في أبرشيته . وإذا ما خرق أي منكم هذه الهدنة بسبب طمع أو جشع أو لكبر في نفسه ، فلتحل عليه لعنة الحرمان بسلطة الله وبقوة هذا المجلس " .

وبعد أن تم تناول هذه الأشياء وأشياء أخرى متنوعة ، قام الحاضرون – رجال دين وغيرهم من الناس – بتقديم الشكر لله وأقرّوا المقترح الذي قدّمه البابا : واعدين إياه بكل أمانة وإخلاص الحفاظ على المراسيم الصادرة في الخصوص وإطاعتها . ثم استطرد البابا قائلاً : في مكان آخر في العالم تعاني النصرانية من محنٍ أسوأ بكثير من المحن التي تم ذكرها . وواصل حديثه :

١- " على الرغم ، من أنكم يا أبناء الله ، قد وعدتم مخلصين أكثر من أي وقت مضى أن تحافظوا على السلام فيما بينكم وأن تحترموا حقوق الكنيسة وتحافظوا عليها ، فإنه ما زال أمامكم عمل على درجة كبيرة من الأهمية عليكم القيام به ، وذلك بعد أن تم إحياؤكم وتنشيطكم منذ لحظات من قبل العناية الإلهية ، عمل يخصكم ويخص الله ، عليكم أن توظفوا قوة صلاحكم واستقامتكم في تنفيذه . ذلك أن إخوتكم الذين يعيشون في الشرق في أشدّ الحاجة إلى مساعدتكم ، التي يجب أن تسارعوا بتقديمها لهم ، مساعدة لطالما وُعدوا بها .

٢- لأن – كما ولابد أن يكون قد سمع أغلبكم – الأتراك والعرب قد هاجموا واحتلوا أرض رومانيا (الإمبراطورية اليونانية) حتى بلغوا سواحل البحر المتوسط من ناحية الغرب وضفاف الدردنيل ، والذي يدعى " ذراع القديس جورج " . لقد استولوا على المزيد والمزيد من أراضي أولئك النصارى ، وألحقوا بهم الهزيمة في سبع معارك . لقد قتلوا وأسروا كثيرًا منهم ، ودمّروا الكنائس وخربوا الإمبراطورية . وإذا ما تركتموهم يفلتون من العقاب ويستمرون في غيّهم لفترة وجيزة ، فإن إخوانكم من المؤمنين سيتعرضون إلى مزيد من الاعتداءات .

٣- ومن أجل هذا ، فإنني ، أو بالأحرى الرب ، يطلب منكم يا جنود المسيح أن تذيعوا هذا الأمر في كل مكان وأن تعملوا على إقناع كل الناس أيًا كانت مراتبهم – جنود مشاة وفرسان – فقراء وأغنياء لمد يد

العون في الحال لأولئك النصارى ولسحق ذلك الجنس الخسيس وإخراجهم من أراضي أصدقائنا .

٤- إنني أخاطب الحاضرين ، ولكنني أعني الغائبين كذلك علاوة على أن السيد المسيح يأمر به .

٥- إن كل من يموت في سبيل ذلك سواء وهو في طريقه برًا أو بحرًا أو يُقتل في المعركة وهو يحارب الوثنيين ، سينال المغفرة ومحو الذنوب في الحال . وأنا كفيل بمنحهم ذلك من خلال السلطة المخوّلة إليّ من الله .

٦- آه يا للخزي والإهانة لو أن هذا الجنس الحقير والدنيء – والذي يعبد الشياطين والعفاريت – استطاع أن يقهر ويغلب شعبًا أنعم الله القدير عليه بالإيمان وصار عظيمًا بفضل اسم المسيح ! ما هي العقوبات التي سوف ينزلها الرب بنا إذا لم ننهض لمساعدة أولئك الذين يشتركون معنا في اعتناق النصرانية !

٧- دع أولئك الذين اعتادوا على شن الحروب الخاصة غير المبررة على المؤمنين أن يتحولوا إلى محاربة الكفار ، ويُنهوا بالنصر المؤزّر هذه الحرب التي يفترض أن تكون قد بدأت منذ زمن طويل . ودع أولئك الذين طال أمد ممارستهم اللصوصية أن يتحولوا إلى فرسان . دع أولئك الذين يحاربون إخوانهم وأقاربهم أن يكفوا عن ذلك ، ويقاتلوا بشكل حقيقي ضد البرابرة . دع أولئك الذين كانوا يخدمون كمرتزقة مقابل قليل من المال ، دعهم يحصلوا على جائزة الخلود . دع أولئك الذين كانوا ينهكون أنفسهم جسدًا وروحًا دعهم يعملون الآن من أجل المجد المزدوج .

٨- نعم ، اسمعوا جيدًا ! سيقف على هذا الجانب التعساء والمعوزين ، وعلى ذلك الجانب سيقف الأثرياء ؛ وعلى هذا الجانب سيقف أعداء الرب ، وعلى الجانب الآخر أصدقاؤه . دع أولئك الذين يرغبون في الذهاب ألا يؤجّلوا رحلتهم ، بل يسارعوا بتأجير أراضيهم ويجمعوا المال لسد مصاريفهم ، وحالما ينتهي فصل الشتاء ويحل فصل الربيع ، دعهم يبدؤون هذه الرحلة بحماس والله دليلهم وراعيهم)) .

obeikandl.com

GREGORY VII CALLS FOR A CRUSADe, 1074

Gregory VII missed the honour of having begun the crusading movement. His plan in clear form the following letter. The situation in 1095 was not materially different form that in 1074, and it is probable that Urban II, when he called for a crusade, had nothing more in mind than Gregory VII had when he wrote this letter. Gregory was unable to carry out his plans because he became involved in the struggle with Henry IV.

Gregory, bishop, servant of the servants of God, to all who are willing to defend the Christian faith, greeting and apostolic benediction.

We hereby inform you that the bearer of this letter, on his recent return from across the sea (form Palestine), come to Rome to visit us. He repeated what we had heard from many others, that a pagan race had overcome the Christians and with horrible cruelty had devastated everything almost to the walls of Constantinople, and were now governing the conquered lands with tyrannical violence, and that they had slain many thousands of Christians as if they were but sheep. If we love God and wish to be recognized as Christians, we should be filled with grief at the misfortune of this great empire (the Greek) and the murder of no many Christians. But simply to grieve is not our whole duty. The example of our Redeemer and the bond of fraternal

love demand that we should lay down our lives to liberate them. «Because he laid down his life for us : and we ought to lay down our lives for the brethren» (John 8:16). Know, therefore,: that we are trusting in the mercy of God and in the power of his might and that we are striving in all possible ways and making preparations to render aid to the Christian empire (the Greek) as quickly as possible. Therefore we beseech you by the faith in which you are united through Christ in the adoption of the sons of God, and by the authority of St. Peter, prince of apostles, we admonish you that you be moved to proper compassion by the wounds and blood of your brethren and the danger of the aforesaid empire and that, for the sake of Christ, you undertake the difficult task of bearing aid to your brethren (the Greeks). Send messenger to us at once to inform us of what Got may inspire you to do in this matter.

OsmanKandil.com

ترجمة لخطاب البابا غريغوري السابع الذي يدعو فيه إلى حملة صليبية ، (١٠٧٤)

لم يحظ غريغوري السابع بشرف إطلاق الحركة الصليبية . إن خطته تبدو واضحة من خلال الرسالة التالية . إن الوضع في سنة (١٠٩٥) لم يختلف كثيراً بشكل أساسي في الجانب المادي عن ذلك الذي كان قائماً سنة (١٠٧٤) ، ويحتمل أن البابا أوربان الثاني – حينما دعا إلى الحرب الصليبية – لم يكن يدور في ذهنه أكثر مما كان يدور في ذهن غريغوري السابع عند كتابته هذه الرسالة ، لأن غريغوري لم يستطع تنفيذ خطته بسبب تورطه في صراع مع الإمبراطور الألماني هنري الرابع .

نـص الرسـالة :

من غريغوري ، أسقف ، وخادم خدم الرب ، إلى كل من عنده الإرادة للدفاع عن العقيدة النصرانية ، تحية وبركة رسولية .

بهذا نعلمكم أن حامل هذه الرسالة ، عرّج على روما لزيارتنا وهو في طريق عودته من رحلة عبر البحر (من فلسطين). وأعاد لنا ذكر ما سمعناه من آخرين كثر أن جنسًا وثنيًا تغلّب على النصارى ودمّر بمنتهى الوحشية وخرب كل شيء تقريباً حتى أسوار القسطنطينية ، وذبح آلاف النصارى وكأنهم خراف . من ثم ، فإذا كنا نحب الرب ونرغب في أن نكون نصارى حقيقيين ، فعلينا أن نشعر بالحزن يملأ قلوبنا من جرّاء المحنة التي تعرضت لها هذه الإمبراطورية العظيمة (الإغريق) ، ومن جراء تقتيل العديد من النصارى . ولكن الحزن والأسى ليس هو كل ما علينا فعله. إن المثال الذي ضربه لنا مخلّصنا يسوع

المسيح ورباط حب الأخوّة يتطلب منا التضحية بأرواحنا في سبيل تحريرهم . "لأنه (يسوع المسيح) قدّم حياته في سبيلنا : ومن ثم يجب علينا التضحية بأرواحنا في سبيل إخوتنا" (جون ١٦:٣). لذلك ، اعلموا بأننا نضع ثقتنا في رحمة الرب وفي قوته العظمى وأننا سنبذل كل ما في وسعنا ونقوم بالتحضيرات اللازمة للحصول على العون للإمبراطورية النصرانية (الإغريق) بالسرعة الممكنة. من ثم فإننا نتوسل إليكم بإيمانكم الذي يجمع بينكم من خلال يسوع المسيح في تبني أبناء الرب، وبواسطة سلطة القديس بطرس، أمير الرسل، ونحثكم على أن تتحرك فيكم الشفقة الملائمة بسبب الدماء التي سالت والجروح التي تعرض لها إخوتكم والخطر الذي تتعرض له الإمبراطورية التي سبق ذكرها، وأنه، ومن أجل يسوع المسيح، عليكم أن تأخذوا على عاتقكم هذه المهمة الصعبة المتعلقة بحمل المساعدة لإخوتكم (الإغريق). ارسلوا رُسلكم إلينا على وجه السرعة لكي تعلمونا بما ألهمكم الرب إلى اتخاذه في هذا الشأن .

Peace of God سلام الله

Truce of God هدنة الله

وهي اتفاقات قُصد منها أن تعمل كأساس لحركة السلام النصرانية التي ظهرت في القرن العاشر في أوروبا بهدف القضاء على العنف، والحروب الخاصة، وتأمين سلامة الحجاج والمسافرين وحمايتهم

وقد تم الإعلان عن "سلام الله" لأول مرة في سنة (٩٨٩) في مجمع ديني انعقد بمدينة شارو Charroux بالقرب من مدينة بواتيه Poitiers بفرنسا، وحرّم "سلام الله" على الأفراد دخول الكنائس عُنوة أو نهبها، كما حرّم اغتصاب ممتلكات الفلاحين، ودعم حقوق غير المحاربين (كالقساوسة والمدنيين) وأيدها، وتوسع مفهومه فيما بعد ليشمل حماية التجار.

وفي حوالي سنة (١٠٢٧) ظهرت "هدنة الله" في هيئة ملحق "لسلام الله" وهدفت إلى إقامة فترات هدنة بين الأطراف المتنازعة، وإيقاف الحروب الخاصة تمتد من مساء يوم الأربعاء وحتى صباح يوم الاثنين إحياءً لذكرى معاناة المسيح.

وقد قام الأساقفة بجمع أعضاء أسقفياتهم وجعلوهم يُقسمون على حفظ السلام، وفي الوقت نفسه تولى الأساقفة أنفسهم إنزال العقوبة الروحية بأولئك الذين رفضوا. وأما العقاب الدنيوي فقد أوكل به مؤسسات شرعية لها ميليشيات خاصة تتولى فرض هذه الاتفاقات وتنفيذها.

وعلى الرغم من مضاعفة الجهود المبذولة للحفاظ على الأمن والسلام في القرن الحادي عشر، فإنها مع ذلك، لم تكن فعّالة بشكل كبير، ومن ثم فحينما أعلن البابا أوربان الثاني (١٠٨٨ – ١٠٩٩) في مجمع كليرمونت سنة (١٠٩٥) عن قيام الحروب الصليبية، فإنه أكد في الوقت ذاته على أن يقوم النبلاء المتنازعون وفرسانهم بطرح خلافاتهم جانبًا، والاشتراك في تلك الحروب من أجل إنقاذ الأرض المقدسة من

المسلمين. وبذلك فإنه يكون قد وجّه حركة السلام وجهة أخرى الغرض منها التخلص من أولئك الذين يتسببون في العنف ونشر الفوضى السياسية والاجتماعية والاقتصادية في أوروبا، وتوجيه بأسهم ونزعتهم القتالية صوب محاربة المسلمين في الشرق؛ ذلك أن الكنيسة الغربية ممثلة في رئيسها البابا، كانت قد أفتت بأن أي حرب تقوم لأجل مساعدة المجتمعات النصرانية "ليست فقط مُبررة، بل هي عمل مقدس، ومن ثم فهي تتمتع بمرضاة الرب".

Not only justifiable but a holy work, and therefore pleasing to God.

الملاحم الروحية وعلاقتها بالحركة الصليبية

إن ذيوع الملاحم الشعرية الأسطورية مثل أنشودة رولاند chanson de Roland، وأنشودة البطولة chanson de geste، التي تمجّد الفارس المحارب وسيفه في الأوساط الشعبية في القرن الحادي عشر كان لها تأثير فاعل على عقول الناس حتى صار حب "الشفرة هو المقصود وليس حب المقبض الذهبي"، وأصبح السيف الذي لم يغمد في بطن أحد لا قيمة له، وفي الوقت نفسه يكون أثر القديسين The relics حاضرًا ليس للحفاظ على حياة البطل ولكن لجعل سلاحه أكثر هلاكًا More murderous. ولم تخلُ أمة نصرانية من هذا المفهوم بشكل كلي، ولكن يبدو أن الفرسان الغربيين – وبخاصة الفرنسيين منهم – هم الذين وسّعوا استخدام هذا المفهوم إلى حد التطرف. ذلك أن التوجه نحو المزج بين حب الحرب وحب الرب بدا واضحًا في القرن

الحادي عشر وبرز من خلال ذلك وكان نظام الفروسية Chivalry الذي كان في وقت ما يتمتع بقوة الأخلاق و النظام و الشعور بمكانته وقيمته، يحاول أن يخلق عالمه الخاص الأمر الذي ترتب عليه خلق ديانته الخاصة على خلاف دين الكنيسة المسالم من حيث المبدأ. وهنا تجدر ملاحظة أن فكرة الحرب المقدسة لم تجد الدعم اللازم في ألمانيا حيث كانت النصرانية حديثة العهد بينما التقاليد السابقة عنها أكثر حضورًا أو تجذرًا، ولا في إسبانيا، حيث ظل المسلمون في الجوار لمدة طويلة، أحيانًا كأعداء، وأحيانًا كحلفاء، ولكن في فرنسا وجدت تلك الفكرة الدعم الأقوى. " ذلك أن نظام الفروسية الفرنسي لم يكن الأكثر تحرقا للقتال وولعًا به، ولكن ما كان يعوزه أكثر هو الحاجة إلى وجود مبرر أخلاقي لتبرير حبه للحرب ".

إن أنشودة البطولة – التي هي شاهد حي على هذه الحالة الذهنية – لم تُخلق من أجل هدف أخلاقي، لأن أبطالها كانوا في حرب متواصلة ولأن الجمهور الذي من أجله وُجدت غير مهتم بما وراء ذلك كثيرًا. وإن الشخصية المفضلة التي تعرضها تلك الملاحم والأناشيد هي شخصية شارلمان الذي بلغ تمجيده درجة رفعته إلى مصاف جيهوفا إله المعارك Jehovah the God of Battles.

وأما الهدف الذي كان شارلمان يقاتل من أجله فهو احتلال أكبر قدر من الأرض، وأما الأرض فقد تم انتزاعها من الوثنيين؛ وأن الوثنيين في هذه الحالة لم يكونوا قبائل السكسون أو اللمبارد ولكن مسلمي

إسبانيا وجنوب فرنسا. وكذلك وُصف المسلمون بالوثنيين في قصائد أخرى.

" وفي الواقع وفقًا للقصائد الفرنسية فإن المسلمين هم أكثر أنواع الوثنيين تخلفًا وبدائية وأنهم عبدة الأوثان التي كانوا يعّدونها آلهة حقيقية، وأن محمدًا (ﷺ) نفسه لا يزيد عن كونه واحدًا منها. فيما عدا ذلك، فقد سلك أولئك الأفراد مسلك الفرسان الفرنسيين" .

وهكذا فإن العدو لم يكن شيئًا مكروهًا في المُقام الأول، ولكنه لم يكن حتى معروفًا بشكل مناسب إلا في الخيال. ومن ثم فإن المسلم القوي، الشجاع العنيف والذي يتم قهره و التغلب عليه في آخر الأمر، صار العدو المثالي وفقًا لخيال محارب العصور الوسطى الذي حل محل الخصم الحقيقي، المتمثل في العدو اليومي: كالدوق، والكونت وحتّى الأسقف الذين كان الفارس يحاربهم وقتذاك.

ولكي تكون الأفعال بطولية بشكل حقيقي كان على البطل أن يتحلى بصدق الضمير وسلامته؛ لأن عليه أن يحارب من أجل الدفاع عن وطنه ودينه. ولكن لم يعد هناك أي خطر أو تهديد حقيقي لما كان ينظر إليه الفرنسيون على أنه تهديد لبلدهم الأصلي (فرنسا)، كما لا يوجد أي خطر يتهدد دينهم، لذلك كان على الفرنسيين العودة إلى زمن شارلمان. " ولأن المستمعين إلى ملحمة البطولة لا يحتاجون إلى الرجوع إلى عهد شارلمان لكي يتصوروا روعة الحرب ومآسيها، ولكن ما جعل epic heroes مآثر أبطال الملاحم نبيلة ومثيرة للمشاعر هي حقيقة أن أعداءهم كانوا وثنيين ".

وهكذا تحولت تلك الملاحم إلى ملاحم شعرية قصصية نصرانية، وكانت تلك الأساطير ذات النزعة الحربية في قلوب الناس في شكل لا وعي مترقب ومتحفز ، لذلك فإن دعوة البابا أوربان الثاني لامست – بالتأكيد – نابض في عقول كل أولئك الجنود الذين أدركوا بين عشية وضحاها أن لديهم مهمة دينية تتطلب منهم أن يصبحوا جنودًا للرب.

ومنذ زمن طويل وقبل بدء الحركة الصليبية، و البابوات يخاطبون الشعور الديني لأولئك الذين وضعوا أنفسهم وأسلحتهم في خدمة الكنيسة: إما للدفاع عنها بشكل مباشر، أو لمحاربة الكفار: إذ أن الكنيسة لم تفقد يومًا وجود مرتزقة "متدينين" Pious mercenaries يسعون للحصول على المكافآت الروحية الموعودة ومع ذلك، فإن العمل الذي قام به البابا أوربان الثاني ترتبت عليه نتائج أكبر بكثير وأبعد مدى مما كان يتوقعه ذلك البابا ذلك أن أوربان أرستقراطي من شامبينChampagne، وُلد في المجتمع الإقطاعي نفسه الذي نظر إلى الحرب على أنها الشرف الأعلى و الهدف الأسمى في حياة الفرد؛ لذلك سعى إلى استغلال النزعة الحربية عند النبلاء الفرنسيين من أجل تحقيق المنفعة العليا للعالم النصراني. لقد كان أوربان طليق اللسان ومتحدثًا ماهرًا، لديه مقدرة عجيبة في التأثير على مستمعيه والوصول إلى مشاعرهم وفي الوقت نفسه مخاطبة سخائهم وشفقتهم، واعتزازهم الوطني، وحبهم للحرب، وتقواهم، وحتى جشعهم وحبهم لجمع المال وخوفهم من العقاب السرمدي. وتميزت خطبه – بشكل عام – بالدهاء

وإلهاب الحماس كما وصفها المؤرخون؛ لذلك كان طبيعيًا لبابا مثله أن يُعلن في خطاب شعبي أنه لم يأت إلى فرنسا لطلب المساعدة لإنقاذ الأرض المقدسة، ولكن ليحث المؤمنين على القيام بعمل ديني.

وهكذا، فإن أوربان لم ينحرف عن المواعظ التقليدية لمن سبقه من الباباوات أو لمن أتى من بعده وذلك في تسليطه الضوء على الحرب، وانتقاده بقسوة الحروب التي تؤدي إلى قتل الأخ لأخيه أي الحروب بين الأخوة Fratricidal wars التي انغمس فيها العلمانيون." إن أكثر المستمعين في هذه المناسبة أي مناسبة إلقاء أوربان لخطابه الشهير -كما يدعي أحد المؤرخين- على دراية بما تعاني منه الأرض المقدسة من مشاكل، وما يتعرض له الحجاج القاصدين فلسطين من صعاب، وأن أوربان لم يأت بجديد حين أخبرهم أن الأتراك السلاجقة يهددون الإمبراطورية البيزنطية. ويستطرد قائلا، ولكن الذي فعله هو أنه أشار بطريقة ذكية إلى المشكلة ووصف علاجها، وهو أنه على أولئك المنهمكين في الحروب الخاصة الشريرة استبدالها بحروب أخرى مقدسة ومباركة من قبل الرب. وهنا، فإن أوربان – ربما – لم يكن يدرك مدى ما حققه من إنجاز: لأن الفكر السياسي الغربي المستقبلي برمته، والمتمثل في استغلال القوات العسكرية العاطلةوالمشاغبة وتوجيهها نحو تحقيق هدف مشترك يُنظر إليه – بشكل عام – على أنه عادل، كان قد تضمنه هذا الخطاب، فضلاً عن إعلانه عن قيامهم بمهمة إلهية Divine mission أُلقيت على كاهل النصارى الغربيين".

على أن مشاكل السياسة العالمية – وقتذاك – لم تكن خافية على أوربان؛ فقد كان على دراية تامة بتقدم الأتراك السلاجقة في آسيا الصغرى، و الصعاب التي كانت تواجه بيزنطة، ومؤامرات الوزراء الفاطميين في مصر، و التنافس القائم بين الأمراء السلاجقة، فضلاً عن أنه رأى في تدخل قوات عسكرية غربية وسيلة تجمع النصارى الإغريق و اللاتين في مشروع يعود على الجميع بالفائدة المشتركة، خاصة وأنه يركز كثيرًا على كسر قوة السلاجقة التي تبدو أنها كانت آنذاك آخذة في الانحدار.

وأما فيما يخص مستمعيه، فقد كانت ردة فعلهم – و التي تمثلت في صيحاتهم التي تعالت من كل جانب هذه إرادة الرب God wills it – دليلاً على أنهم شعروا بمناشدته أولاً وقبل كل شئ في هيئة مغامرة ذات معنى روحي غير حسي ولا مادي و المتمثل في تخليص القدس؛ فاستجاب له الجميع نبلاء وعامة بالقدر نفسه من الحماس. وأما الحملة العسكرية التي اقترحها البابا، فقد جاءت في اللحظة المناسبة كجواب على حاجة حقيقية على الرغم من أن تلك الحاجة لم تكن معلنة حتى ذلك الحين[1].

الحج وعلاقته بالحركة الصليبية

لقد عرفت أوروبا الحج إلى الأماكن المقدسة منذ زمن بعيد، أي منذ سنة (٣٣٣م) حينما قدم حاج من بوردو إلى القدس، وكان الحج في

---

[1] Zoe oldembourg , The Crusades , tran . by Anne Carter Pantheon Books (N.Y,1966) pp.33-40

بداية الأمر يتم بشكل فردي ثم ما لبث أن تحول إلى حج جماعي في حوالي النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي بعد أن تأسست أديرة وبيوتًا في فلسطين تأوي الغرباء القادمين إليها .

ولم ينقطع تيار الحج منذ ذلك الوقت، ولم يتأثر بالفتح العربي لفلسطين في القرن السابع الميلادي. ويعود الاهتمام بالأماكن المقدسة – كما يراه البعض – إلى الإتجار المتزايد بين الشرق و الغرب بالبقايا المقدسة. لكن حج التوبة الذي بدأ ينمو تدريجيًا كان أكثر تأثيرًا؛ إذ فُرض هذا النوع من الحج بوصفه عقوبة على الجرائم التي تُعد أساسية مثل قتل الأخ التي كان التكفير عنها يتطلب الحج لمدة سبع سنوات إلى مراكز الحج الرئيسة مثل روما – سان ميشيل في مونت غارغانو- وسانتياغو دي كومبوستيلا في إسبانيا ، وقبل كل شيء إلى القدس وبيت لحم .

ومنذ القرن العاشر تزايد عدد الحجاج وزاد الاعتقاد في أثره – أي في الحج من أجل التوبة ومحو الذنوب. ومنذ تأسيسه في مطلع القرن العاشر، أخذ ديركلوني[1] على عاتقه تنظيم الحج ورعايته وتذليل الصعاب أمام المسافرين إلى الأماكن المقدسة في فلسطين. على أنه لا يمكن التقليل من المخاطر التي صار يتعرض لها الحجاج بدءًا من منتصف القرن الحادي عشر ليس فقط – كما يعتقد البعض – بسبب ارتباطه باختيار الطريق الذي يمر عبر الأناضول والذي صار محفوفًا بالمصاعب منذ سيطرة السلاجقة على تلك المناطق، وإنما بازدياد عدد

[1] ديركلوني، تأسس في سنة (٩١٠م) بمقاطعة برغنديا بجنوب فرنسا.

الحجاج الذي كان يقْلق الدوائر الإسلامية في آسيا الصغرى وفلسطين: لأنه على الرغم من الصعوبات التي كانت تظهر في بعض الأحيان، فقد أخذت أعداد الحجيج تزداد حتى بلغت في سنة (١٠٦٤/١٠٦٥) حوالي (٧٠٠٠) فرد. وكيف يمكننا تخيل هذا الحشد الهائل من البشر في طريقه إلى فلسطين عبر الأناضول والشام دون أن يتعرض لسوء المعاملة وإلى مخاطر جمة وهي المناطق التي كان الصراع فيها على أشده بين السلاجقة و البيزنطيين. ومع ذلك فإن ظروف السفر إلى الأماكن المقدسة بغرض الحج بشكل عام لم يكن على درجة كبيرة من السوء كما صورها البابا أوربان الثاني* في خطابه، الأمر الذي جعل المؤرخ أردمان يقول " فقد جعل أوربان فكرة الحج الرائجة شعبيًا والتي لا نفع لها موضوعيًا، نافعة في مجال حرب المسلمين ". أو كما كان عليه الحال زمن ملاحقة الحاكم بأمر الله الفاطمي للنصارى، وتخريبه لكنيسة القيامة سنة (١٠٠٩)، فهذه حالات فردية ولا يمكن القياس عليها لأن هذا الحاكم لم يسلم من بطشه حتى المسلمين. ولكن في الوقت نفسه لا يمكن الجزم بأن طرق الحج كانت مريحة مثلما كانت عليه في زمن شارلمان الذي كان يهتم بالمواصلات إلى فلسطين ورعاية الحجيج نظرًا للعلاقات الجيدة التي ربطته مع الخليفة هارون الرشيد.

ومن هنا يرى فريق من المؤرخين أن ثمة ارتباطًا بين الحج و الحملة الصليبية: فقد كان المشارك في الحملة الصليبية يتميّز عن الحاج

---

* أوربان الثاني (١٠٨٨ ـ ١٠٩٩)، هو البابا المسؤول عن إعلان الحروب الصليبية في اليوم الثامن و العشرين من نوفمبر من سنة (١٠٩٥م) من مدينة كليرمونت بفرنسا .

بسلاحه؛ أما الحملة الصليبية فلم تكن في أساسها سوى حج مسلّح ذي امتيازات روحية خاصة مقترنة بغفران خاص. ولذلك فإن الحملة الصليبية هي تطوير محكم لفكرة الحج، ولولا توارد الحجاج على الدوام على مدى قرون لما خطر على بال أحد أن يزحف من أجل احتلال فلسطين.

وهكذا فلابد – كما يرى هذا الفريق – من أن يؤدي استمرار تدفق الحجاج على فلسطين إلى نمو الرغبة عند النصارى في امتلاك قبر المسيح؛ لأن الأمر صار لا يتعلق بالصعوبات التي يصادفها الحاج في طريقه، وإنما بالفكرة القائلة أن الأماكن المقدسة ومخلفات السيد المسيح هي في أيدي المسلمين. ومن ثم غدا هذا الوضع شيئًا فشيئًا أمرًا غير محتمل، ومن هنا يبدو واضحًا الارتباط بين الحملة الصليبية و الحج، وقد قام البابا أوربان الثاني بربطهما بالمؤسسات. وإن فكرة الحجاج المسلحين قد أثرت في إيقاظ حميّة الفرسان وبخاصة أولئك الذين تمت تهيئتهم بشكل تدريجي لخوض حروب دينية لمصلحة الكنيسة وقتال " الكفار ". ذلك أن أوربان الثاني نعت المسلمين في خطابه بأنهم برابرة، وأنهم جنس خسيس، وأنهم وثنيون، وأنهم سلالة دنيئة وحقيرة، وأنهم كفّار.

Vile ، Pagans، despised and base race and infidels.

Barbarians، race